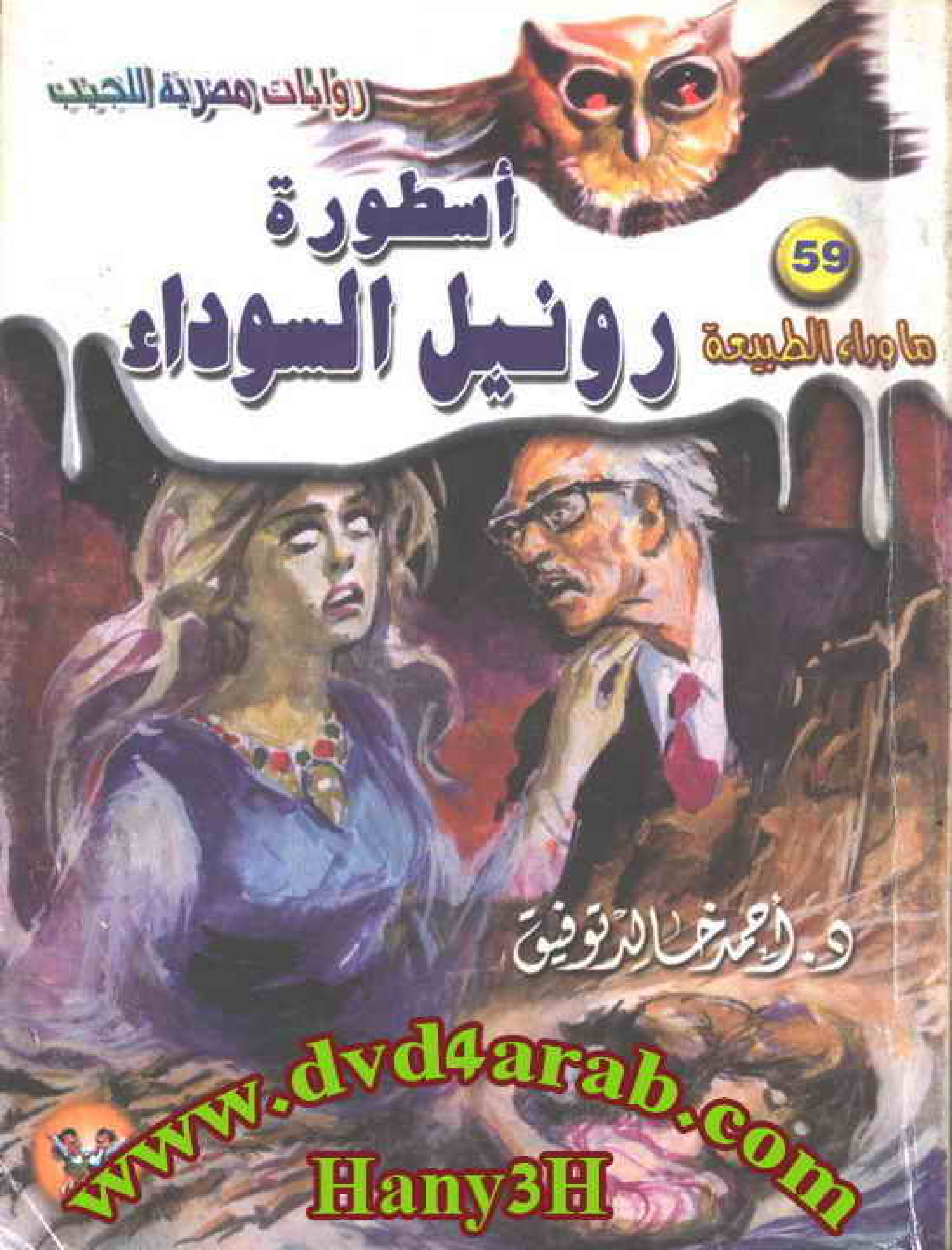

روايات مصرية للجيب
أسطورة
رونيل السوداء
59
ما وراء الطبيعة
د. أحمد خالد توفيق
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

هذا أنا مرة أخرى ..

لابد أن البعض رحب بى بحرارة ، ولابد أن الكثيرين ركلوا الجدار أو الأرض فى غيظ ، وهتفوا : هو ذا ذلك العجوز النصاب من جديد ! ألم يمت بعد ؟!

حسن .. لابد لى من أن أعترف أن عشرة أعوام كاملة مع العجوز (رفعت إسماعيل) لهى أكثر من اللازم .. هذا بالطبع ما لم تكن عقابًا جديرًا بالأساطير الإغريقية ..

قليلون منكم لاحظ بالفعل أن عشرة أعوام كاملة قد مرت ، وأنا لا أكف عن الثرثرة ، منذ يناير 1993 حتى يناير 2003 وكنت أنوى الاحتفال بذلك فى الكتيب رقم 58 ، ثم قررت أن تهنئة النفس أسلوب غير محبب .. ما دام أحد لم يلحظ فلا داعى للتنويه بذلك ..

والمشكلة أنكم لا تلقون العجوز (رفعت إسماعيل) إلا والأمطار تنهمر أو قيظ الصيف يحرقكم .. هذا لا يبدو طقسًا محببًا للقراءة ، لكنه ـ إلى حد ما ـ يناسب قصص الرعب ..

أين كنا إذن ؟

كنت راغبًا اليوم فى حكاية قصتى مع (البيروسات) أو مع (ليليث) أو ... لكنى أراكم مصرين على أن أستكمل قصة المقبرة .. وإنها لعادة غريبة .. لسبب ما تصرون على أن من بدأ قصة لابد أن ينهيها ..

فى الكتيب السابق فضلت أن أبدأ بـ (أرض العظايا) لأسباب لا تخفى على أحد ، لكن اليوم لم يعد ثمة مبرر للتأجيل أكثر .. حسن .. سأحكى لكم الجزء الثانى من القصة وقد اخترت له اسم (رونيل السوداء) ..

أنتم تعرفون أن الطفلة (إليانور) لم تكن طفلة .. وتعرفون أن الساحرة (لورين) لم تكن ساحرة .. وتعرفون أن العبقرية (ماجى) لم تكن عبقرية .. وتعرفون أن الأحمق (رفعت) لم يكن أحمق ..

هذا جميل ..

يمكننا البدء إذن ما دمتم تذكرون كل شىء !

★ ★ ★

١ـ المشكلة تنتظر ..

« نظرت لى فى غباء فأخرجت قلمًا من جيبى وخططت على الجدار :

ـ « Eleanor .. Ronaele »

وقلت فى تؤدة :

ـ « لو قرأت (إليانور) بالمقلوب لصارت (رونيل) .. كأنك تضعين الحروف أمام مرآة .. بالمناسبة الساحرة اسمها الأصلى (هيلين) .. و(إليانور) تنويع على اسم (هيلين) .. وجدت هذا فى قاموس (وبستر) الذى أحمله دائمًا .. »

هبت واقفة وصاحت :

ـ « أكرر .. ما الذى تعنيه ؟ »

ـ « أعنى أن ما رأيناه أمس لم يكن طقوس تضحية بالطفلة .. بل كانت طقوس تنصيب !! إن (رونيل السوداء) قد استحوذت على الطفلة وسوف تبدأ دورة حياة جديدة معها !! »

ـ « أنت مجنون !! »

- « وما الدافع الذى جعلك تأتين هنا بالذات مع الطفلة فى هذا الوقت بالذات ؟ يسهل أن نتصور أن من سرق الصور هى الطفلة ذاتها وهى من رماها من النافذة .. كانت قد بدأت تتحول لكن التحول لم يكن تامًا .. كان لا بد من تنفيذ الانتقام أولاً بعدها يتم الحفل الصاخب .. »

- « نحن قاطعنا هذا الحفل فى ذروته .. »

- « بل متأخرًا جدًا .. »

كان هذا الصوت من وراء كتف (ماجى) فأجفلنا ونظرنا للوراء ..

كان صوت أنثى فى منتصف العمر ، لكننا وجدنا أمامنا (إليانور) ذاتها حافية القدمين فى قميص نومها .. وعلى وجهها ضحكة لن تصدقها ما لم ترها ..

كانت تقف على الباب ترمقنا بمزيج من حقد وتلذذ وسخرية وكراهية .. وقالت :

- « تأخرتما كثيرًا جدًا .. لقد عادت (رونيل السوداء) .. وهذه المرة لن يمسها سوء لأن هذا العصر لا يعترف بحرق الساحرات ! »

صحت وأنا أرتجف هلعًا :

- « نحن نعرف كل شىء .. »

- « لكنكما لن تستطيعا المساس بى .. يومها ماذا تقولان للشرطة ؟ كانت ساحرة ؟ »

ثم انفجرت فى ضحكة مستهترة قبيحة ماجنة كريهة وخرجت من الغرفة ..

وسقطت (ماجى) على الأرض باكية .. أعترف أن أعصابى لم تسمح لى إلا بالاستناد إلى الفراش .. وهتفت (ماجى) وهى تنشج :

- « لن أتركها .. إنها قريبتى .. سآخذها معى إلى (إنفرنسشاير) وسأفعل المستحيل كى تشفى .. »

- « تأخذين معك من تعيش داخلها ساحرة شريرة ؟ »

- « لا تتوقع منى أن أربطها إلى عمود وأحرقها .. إنها حالة نفسية لا أكثر .. ربما فصام من فرط ما عانته .. »

قلت لها :

- « أنا كذلك أعتقد أن شفاءها ممكن .. إنها ممسوسة أو مجنونة .. لأن الساحرة لم تعد للحياة ولم تغادر قبرها .. ربما أمكن أن نجد حلاً .. »

ولبثنا ساعات على الأرض نرتجف .. ونفكر فى المستقبل الغامض .. »

* * *

قال (سمير) وهو يلتصق بى أكثر ، محاولاً أن يخفى رأسه الصغير فى خصرى :

ـ « أنا خائف يا أبى .. »

فى الحقيقة ونظرًا إلى الجو العام المقلق من حولى ، لا أجد أنه يبالغ فى هذا الذى يشعر به .. لكن واجبنا نحن الكبار أن نتظاهر بالصلابة والتماسك ، حتى لو كانت أعصابنا قد بلغت آخر مدى لها قبل أن تنقطع ..

داعبت شعره الأسود الناعم الذى ورثه عن أمه وليس عنى لحسن الحظ ، وهمست فى أذنه :

ـ « سينتهى كل شىء .. هل تتصور أننا سنصير جثتين متعفنتين تنتثر أحشاؤهما خارجًا ؟ »

قال بصدق :

ـ « طبعًا .. »

ـ « إذن أنت مخطئ .. هذا مشهد أبشع من أن تتصوره .. وبالتالى هو لن يحدث لنا .. »

هذه قاعدة (يحدث للآخرين فقط) .. لقد حان الوقت كى يتعلمها .. فهى تثبت دومًا براعتها فى بعث الطمأنينة فى

النفوس ، كما أنها ـ حين يتضح خطؤها ـ تجعل تصديق ما حدث عسيرًا .. لهذا يبدأ الخط الدفاعى الثانى (هذا لا يحدث لى فعلاً) .. بعد هذا يأتى الخط الدفاعى الثالث : الصدمة العصبية والنشاط الزائد للعصب الحائر Vagus من ثم تفقد الوعى .. تفقده لفترة مريحة يمكن أن يحدث فيها أى شىء لك .. هناك خطوط دفاعية أخرى مثل مادة (الإندورفين Endorphin) التى يفرزها مخ الفأر وهو بين أنياب القط .. وهى نوع من المورفين الداخلى الذى يلغى إحساسه بالألم .. هذه هى الحكمة الإلهية العليا : كل ألم يأتى معه برحمته ..

واحتضنت (سمير) أكثر ..

هذه هى مزية أن تكون متفردًا بلا أسرة .. أنت وحدك تتحمل ما يحدث لك وانتهى الأمر .. أما مع وجود ابنى فى هذه القصة فالموضوع أقسى بمراحل ..

فكرت فى هذه الأشياء بينما الدخان يتصاعد من الكهف ..

لقد جاءت اللحظة .. لم يكن كل ما توقعناه كذبًا ..

ترى أين زوجتى الحبيبة وسط هذا كله ؟

* * *

أعود بذاكرتى إلى بداية القصة ..

كما تعرفون كان لابد لى أن أعود إلى مصر .. كان لدى طن من الأعمال الطبية والأسرية ، ولم يكن من المنتظر أن أبقى إلى الأبد فى (ليفورد ـ دونيجال) ، حتى تقرر الآنسة الصغيرة أن تعلن عن حقيقتها ..

كنت أعرف أنها قمينة بأن تحيل حياة (ماجى) إلى جحيم .. هاته الفتيات الصغيرات الممسوسات يجدن هذه الأشياء ، وقد عرضها الكاتب الأمريكى اللبنانى (بيتر بلاتى Blatty) بالتفصيل الممل فى قصة (طارد الأرواح الشريرة Exorcist) حيث استدارة الرأس ١٨٠ درجة إلى الوراء ، وإفراغ خليط أخضر من الفم على سجادة الصالون أمور عادية جدًا .. لم يعد هناك جديد فى هذا الصدد .. دعك بالطبع من الكلام باللاتينية لأن هذه كما يبدو من سمات هذه الشياطين المثقفة .. لهذا يقولون : اقتل أى شخص يتكلم اللاتينية بطلاقة ، ما لم يكن هو القس الكاثوليكى ..

لكننى ـ وأنت تقدر موقفى ـ أجد من العسير على أن ألغى حياة لى فى مصر من أجل خاطر قد يكون وقد لا يكون ...

هكذا عدت لحياتى فى مصر .. الكلية .. المستشفى .. (كفر بدر) .. السهرات الكئيبة لدى (عزت) .. لقاءات مع (كاميليا) .. بعض عيادات الأصدقاء حيث أكتشف المزيد من الأسباب التى ستكتب فى شهادة وفاتى ..

كانت لى قصة قصيرة سخيفة مع الدودة التى تكبر يومًا بعد يوم ، والتى توشك على أن تحتل عالمى كله .. لا أعرف إن كنت سأحكيها يومًا ما .. ربما أفعل لو اتسع الوقت ..

ثم إننى تلقيت خطابًا من (ماجى) .. هكذا أجلت كل شىء وكل تفاصيل حياتى إلى أن أقرأه ، وكان يستحق الاهتمام حقًا :

« إنفرنشاير فى .....

« الأعز (رفعت) :

« الحقيقة أننى أفتقدك بشدة فى هذه الأيام ، وأعرف أنك تشعر بالشىء ذاته ، وهذا ما يجعل علاقتنا فريدة .. أنا أعرف أنك تشعر بما أشعر به بلا مجاملة ولا مداهنة ولا افتعال ..

(... جزء محذوف من خطابها لأن من حقى أن أحتفظ بشىء سرًا .. لست معروضًا فى واجهة محل لو كنت تفهم ما أعنيه ...)

أحيانًا أستعيد شريط كل ما واجهناه فى (دونيجال) ، وتلك الأيام الغريبة ، فأشعر أن هذا كله كابوس ثقيل ، وأنه لم يحدث شىء مما حسبنا أنه حدث ..

« أستعمل أدوية الاكتئاب بكثرة هذه الأيام ، وقد برهنت على أنها لا تجدى مع الذكريات أبدًا .. أتمنى لو أمد سكينًا إلى مخى وأنتزع كل ما يمت بصلة لتلك الرحلة الغريبة إلى أيرلندا ..

« لكن حتى لو وجدت هذه السكين السحرية ، فلا أعتقد أننى سأستطيع نسيان (إليانور) الصغيرة ، وما مرت به ..

« هى معى فى كل لحظة من اليوم .. نحن لا نفترق الآن .. وقد رتبت كل شىء مع أهلها بحيث تمضى عامًا معى هنا فى (إنفرنسشاير) .. هم يعرفون بعض الحقيقة لا الحقيقة كلها .. يعرفون أنه كانت هناك متاعب مع بعض الشيطانيين ، لكنهم لا يعرفون الجدل الدائر حول ابنتهم وهل هى جزء من هؤلاء الشيطانيين أم لا .. تعرف طبعًا أن هذه من الأشياء التى لا تقال ، ولو قيلت فكيف تقال ؟

« ما إن عدت إلى قصر أبى ، حتى رتبت لها إقامة مريحة واعتنيت بكل التفاصيل بما فيها اللهو والدراسة ..

لا أنكر هنا أننى كنت أشعر بسعادة لا بأس بها .. الشعور بأنها صارت ملكى .. هذا الشعور الذى لن تفهمه أنت يا (رفعت) والذى تشعر به طفلة تعود إلى دارها حاملة الدمية التى اشترتها .. ينتظرها مستقبل حافل من تمشيط الشعر وانتقاء الثياب المناسبة لهذه الدمية ..

« ومرت الأيام بشكل طبيعى باسم .. لا مشاكل .. لا خدوش على جانب الفراش بالأظفار ليلاً .. لا قىء على سجادة الصالون ـ وأنا أعرف أن هذا فى ذهنك ـ وقد بدأت أعتقد أن ما حدث كان وهمًا ..

« لقد مرت الفتاة بضغط نفسى هائل ، لو مر به أى عقل مهما بلغ ما بلغ من ثبات وقوة ، فلسوف ينهار .. لفترة مؤقتة أو هذا ما أرجوه ..

« الآن أنت متحفز للأسوأ تتساءل : متى بدأ الجزء القذر من القصة ؟ متى ظهر الجانب المظلم من القمر ؟

« لا تقلق يا (رفعت) .. لقد بدأ كل شىء من أسبوع ... »

* * *

2 ـ مشاكل تربوية ..

باقى خطاب (ماجى) ...

« كنا فى تلك الأيام نخلد إلى النوم فى العاشرة مساء ..

« فى الحقيقة كنت أقنعها بأننى فعلت ذلك ، ثم أتسلل إلى مكتبى لأعود إلى بعض الأبحاث الفيزيائية الخاصة بى .. إن هذه الأمور تحتاج إلى تركيز ، ومن المستحيل أن تقوم بها نهارًا .. هناك فى مكتبى تجد جهاز الكمبيوتر مفتوحًا وقد انتثرت عليه الجداول ، والآلة الحاسبة مفتوحة مع مجموعة من صور أشعة إكس للبلورات .. والحقيقة إننى أحب هذا المنظر لكنى غير متحمسة لمحتواه .. إن ساحة المعركة مغرية وتوحى بالانهماك والعلم ، لكنها لم تعد تسفر عن مواقع مهمة ..

يدق رئيس الخدم الباب .. أنت تذكره .. إنه آخر بقايا الإمبراطورية ومرآه يعيد لى ذكريات عجيبة بعض الشىء عن الحملة على الهند ، والأدميرال (نلسون) وسياسة المستعمرات .. إلخ ..

ـ « هل تطلب الآنسة شيئًا ؟ »

ـ « لا يا (جراهام) يمكنك أن تنام الآن .. »

« هكذا يغادر المكان وأعرف أننى وحيدة تمامًا فى هذا القطاع من القصر .. دعك من أصوات الأشباح الماشية فى الردهة وقعقعة الدروع الواقفة فى الخارج .. هذه أشياء محتمة فى أى قصر أسكتلندى على ما يبدو ، ولم تعد تؤثر فىَّ لحظة .. بل إن الليلة التى لا أسمع فيها خطوات السير (أرشيبالد ماكيلوب) خارج المكتبة هى ليلة سوداء تفعمها الوحدة .. أفتقد حتى وحش (لوخ نس) الساحر ..

« أحاول أن أركز .. أن أستجمع أفكارى .. لكن لا .. تلك الذكرى الأليمة لا تترك لى مجالاً للتنفس ..

« وهكذا أعد لنفسى المزيد من عصارة الأفكار التى يطلقون عليها (كابوتشينو) ، وأشعر بالمشروب الثرى يتخلل خلاياى ليعيدها إلى الحياة ..

« مشيت بالقدح الساخن فى يدى ، وأنا أفكر ..

« كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط .. تلك الغرفة التى أحلتها قطعة من (ديزنى لاند) بالستائر الجميلة ، وورق الحائط المزركش بالأزهار ، وكل الدمى التى نثرتها فيها .. إن الشيطان الذى يتسلل إلى هذه الحجرة لهو شيطان طفل بالتأكيد ..

« كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط .. حين سمعت المحادثة القادمة من الداخل .. لم أميِّز ما يقال ولكنى أؤكد لك أنهم كانوا خمسة .. على الأقل ..

« كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط .. وأذنى ملتصقة بالباب .. أحاول أن ألتقط حرفًا من تلك المحادثة .. لا لم تكن باللاتينية ، أنا أعرف أن هذا السؤال دار بذهنك ..

« كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط .. وأمد يدى إلى المقبض .. وأديره ..

« فى اللحظة الثانية فتحت الباب بحركة درامية .. ونظرت إلى الفراش فى الضوء الخافت القادم من الردهة ..

« كانت الفتاة جالسة على الفراش فى وضع القرفصاء ، ولم يكن حولها أحد .. لكنى رأيت ثلاثة فئران تركض فارة فى عدة اتجاهات .. برررررر ! أنا أمقت الفئران كأية أنثى أخرى .. لكنى أمقت الفئران التى تحيط بطفلة أكثر ، والمقت يبدأ كدرجات السلم الموسيقى نوعًا من الاشمئزاز والنفور ثم يتصاعد ليتحول إلى غضب مجنون .. هذه هى اللحظة التى يتم القتل فيها ..

وهكذا أضأت النور ورحت أفتش كالمخبولة عن تلك الثدييات المريعة .. من المستحيل أن تجد فأرًا حين تبحث عن واحد ..

قلت وأنا أغلى من الغيظ :

ـ « صبرًا .. فئران فى بيتى النظيف !! سأخبر (جيمس) غدًا ، ولسوف يطلب خبير التطهير .. إن هذه من الأيام القليلة التى أغبط فيها نفسى على أننى لست فأرًا .. »

ثم وضعت يدى على كتفها فى رفق :

ـ « هل أنت بخير يا حبيبتى ؟ »

لم ترد .. فقط زامت فى سكون ..

نظرت لها بدقة أكثر ففهمت لماذا تزوم ..

من الصعب أن تتكلم بحريتك بينما هناك ذيل فأر يتدلى من فمك !

★ ★ ★

لا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى خيال كبير يا (رفعت) كى تخمن ما دار فى ذهنى .. كل ما قلت وكل ما فعلت ..

لم يكن ما حدث لنا مجرد خيال .. إن الفتاة مريضة ومريضة جدًا لو أردنا الدقة ..

رباه ! وأنا التى اعتقدت أن الكابوس انتهى ، وأننى رأيت

أسوأ ما فيه .. أتذكر هنا ما قلته لى من أن ما لم نعتده يثير رعبنا أكثر من أى مسخ فى الأرض .. من المعتاد - بل المحبب والمريح - أن ترى الدم ينزف من إصبعك حين يجرح .. أما إذا لم يحدث هذا فهو ليس خبرًا بهيجًا على الإطلاق ...

دعك من هذه التفاصيل ..

« فى هذه اللحظة بالذات عرفت أننى بحاجة إلى طبيب نفسى أو خبير فى الماورائيات (ميتافيزيكس Metaphysics) أو كليهما ..

« الواقع إننى إنسانة محظوظة لأن لى أصدقاء غير عاديين .. كلا .. لا أعتبرك منهم فأنت فى قائمة مختلفة بعض الشىء .. هناك (ويليام ماكلارين) وهو صديق طبيب نفسى، لكنه كذلك - ربما مثلك - مهتم بما لا يرى ولا يسمع ولا يشم .. وهو أقرب إلى الفيلسوف منه إلى أى شىء آخر ..

« هكذا دعوته لتناول الشاى ومقابلة الطفلة الجميلة (إليانور) التى التهمت فأرًا أمس ..

« كان رأيه أن هذا نوع من الـ Pica وهو الميل المرضى لما ليس طعامًا، وهو يظهر لدى الحوامل وفى الاضطرابات

النفسية .. فصارحته أننى رأيت حوامل كثيرات لا يأكلن الفئران ولا يتحدثن معها قبل الأكل ..

« قال لى إن هناك زاوية سلبية وزاوية موجبة .. الزاوية السلبية هى تبرهن على أن الطفلة لا تشكو من مرض نفسى ما .. والزاوية الموجبة هى أن تبرهن على أن لدى الطفلة قوة نفسية معينة ..

« هكذا أجرى عليها حشدًا من التجارب النفسية وقياسات الذكاء، وكانت النتيجة رائعة .. ذكاء الفتاة طبيعى ونفسيتها مستقرة كقدم الخرتيت .. إن الزاوية السلبية قائمة .. لكن هناك عددًا من علامات الاستفهام هنا ..

« الساحرة لم تعد للحياة .. فهل عادت روحها لتتقمص الطفلة وتولد من جديد عبرها ؟ أعتقد أن هذا غير مقبول لك لأنك لا تؤمن بنظرية التناسخ .. على كل حال أنا لا أعرف ما تعرفه ولا ما يعرفه (ويليام) .. بالواقع لا أعرف ما يعرفه أى واحد فى هذه القصة ..

« كان القرار الذى استقر عليه هو ... هو .. نعم بالفعل .. جلسة استحضار أرواح .. سيحاول الاتصال بتلك المرأة (رونيل) السوداء، ولسوف يفهم منها القصة الكاملة لتلك

اللعنة .. سيعرف لماذا تضطهد الطفلة .. باختصار سيحاول مفاوضتها بعد أن يعرف ما نعرفه .. سيحاول عقد اتفاقية عدم اعتداء ..

« ما رأيك فى هذا الجنون ؟ أعتقد أن الأمر يروقك .. لم يبق إلا موسيقا تصويرية لـ (برنشتاين Bernstein) مع بعض المونتاج البارع ، ليصير لدينا فيلم رعب ممتاز .. المنافس الجديد لطارد الأرواح الشريرة أو (داميان) .. باختصار كل أفلام الأطفال الأشرار الذين تحوى عيونهم البراءة والرقة ، لكنهم أفاع يجب تدميرها ..

« موعد الجلسة الليلة ..

« سوف أكتب لك بالتفصيل .. الحقيقة أننا نفتقدك هنا ، وآمل أن تلحق بى فى أقرب فرصة ..

(ماجى)

★ ★ ★

طبعًا ـ كما ترى أنت ـ كان الخطاب سيئًا .. وكان يحمل أخبارًا نصفها مزعج ونصفها مخيف ..

أنا لا أحب الأطفال بطبعى .. أحبهم حين يكونون عاجزين

محتاجين إلى الكبار .. باختصار وهم فى المهد وقد تلوثت شفاههم باللبن ، لكنى لا أطيقهم لحظة بمجرد أن يدخلوا حقبة الركبة الملوثة بالميكروكروم .. حقبة تعذيب القط وتمزيق أوراقك الهامة وإتلاف التلفزيون .. أنا لا أحب الأطفال الطبيعيين فكيف بالأطفال الذين يحوم حولهم شك ما ؟

لقد كلمتنا الطفلة بصوت خشن لا شك فيه .. لم تكن هذه هلوسة سمعية .. أنا أعرف جيدًا أن شيئًا كريهًا حل بها .. وأعرف أن لعنة (رونيل) السوداء عادت بعد كل هذه الأعوام لتنتقم ممن كانوا السبب فى حرقها ، وتعد البلدة لـ (رونيل) جديدة .. فهل تبدأ (رونيل) تلك الطفولة ؟ إذن (ماجى) ستكون معلمتها ..

المشكلة هنا أنك تستطيع الخلاص من كل كلب يسيل لعابه أكثر من اللازم ـ خشية أن يكون مصابًا بالسعار ـ أو قط أجرب .. لكن من العسير أن تبرر الخلاص من طفلة بريئة المظهر خاصة لو كانت قريبتك ..

على كل حال قلبى يحدثنى بأن جلسة التحضير هذه ستكون مهمة .. أنا لا أؤمن بتحضير الأرواح ، وأشك فى قدرة بشر على استدعاء الروح .. لكنى أؤمن أن هذه

الجلسات تحدث ثغرة فى جدار الوعى تؤمن اتصالاً معينًا مع عالم ما وراء الطبيعة .. ربما لأن الشياطين تتصل بمن يجرب ..

يقول عالم النفس الكبير (يانج Jung) تلميذ (فرويد) المشاغب : إن المجموعة الجالسة فى جلسة تحضير أرواح تمثل ثقافة فرعية أو ثقافة مضادة ، تصر على أو تؤيد حقيقة أحداث معينة تنفيها الثقافة السائدة .. أى أن (اللاوعى الجمعى) للجالسين ينفصل عن (اللاوعى الجمعى) للمجتمع الخارجى .. وحين تنجح هذه المجموعة فى عزل نفسها عن العالم الخارجى بمعتقداته المعادية ، فإن حقيقة معينة تولد ..(*)

الخلاصة أن هذه الجلسات تقود إلى معلومات .. بعضها زائف وبعضها مصيب .. لكنى لا أزعم لحظة أن هذا ناجم عن الاتصال بالروح ..

والآن ماذا أفعل ؟

(*) لـ (فرويد) تلميذان عظيما الشأن اختلفا معه كثيرًا ، هما (يانج) و(أدلر) .. الأول أعلى من شأن الوجدان الجمعى وحقيقة أننا نحمل تراث أجدادنا فى أذهاننا ، والثانى أعلى من شأن مركب النقص ، وأن كل حياتنا محاولة للانتصار على مركبات نقص نشعر أنها فينا ..

طبعًا لا شىء أعمله إلى أن يأتى خطابها الثانى ، وهو لن يتأخر طبعًا لأنها ستكتبه بعد الجلسة .. أى سترسله بعد يوم أو أقل من إرسال خطابها السابق الذى وصلنى فعلاً ..

لكن مصلحة البريد لا تعترف بحساباتى على كل حال ..

لقد وصل الخطاب بعد أسبوع كامل .. وقد لاحظت من البداية أن خط (ماجى) الأنيق النضيد قد بدا بالغ الارتباك على المظروف .. إنها فى حال سيئة ...

كنت فى مكتبى بالكلية ، لذا نهضت وأغلقت الباب بالمفتاح .. فى الغالب سيفترض القادمون أننى أمر بنوبة قلبية كالعادة ، فهذا من روتين حياتى هنا .. وقد تعلموا ألا يزعجونى كى أستمتع بالنوبة القلبية وحدى فى سلام ..

الآن أفتح الخطاب وأدعو الله ألا يكون محتواه مصيبة ..

«إنفرنسشاير فى ...

«الأعز (رفعت) :

« كما قلت لك فى الخطاب السابق ، أعددت كل شىء لتلك الجلسة التى رتبها د.(ويليام مكلارين) فى بيتى .. وكنا قد اتفقنا على أن تبدأ الجلسة بعد العاشرة حين تخلد

(إليانور) للنوم ، وبالطبع كلفت مسز (أوركهارت) مدبرة المنزل بأن تعنى بالفتاة وتراقبها .. لا أحد يرغب فى مفاجآت غير سارة فى أثناء انهماكنا فى تلك الطقوس .. كنا بحاجة لطرف ثالث لذا استعنا بصديقة هى عارضة الأزياء الحسناء (إلسترى) .. وهى فتاة من الطراز الذى تلتوى له أعناق الرجال فيذهبون لأطباء العظام .. لا أرى فيها سحرًا خاصًا .. فهى جميلة جمالاً مسطحًا (ماسخًا) جديرًا بعارضات الأزياء فعلاً ، حيث لا يجب أن يطغى جمالها على الثوب الذى تعرضه .. على كل حال لن أفهم هذه الأمور حتى أصاب بأول ورم يفرز هرمونات الذكورة فتنمو لحيتى وأتحول إلى رجل ...

« طبعًا بصفتى فيزيائية لم أفوت الفرصة ، وحرصت على تسجيل الواقعة صوتًا وصورة مع وضع بعض أجهزة القياس .. إن الفيزيائى الذى لا يقيس الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية وترددات الصوت فى جلسة تحضير أرواح لهو فيزيائى فاشل .. استعملت فيلمًا حساسًا من طراز ١٦ ملم كى لا يفوتنى شىء(*) ..

« فى العاشرة والنصف أدار (ويليام) جهاز تسجيل يذيع

(★) فى هذا الوقت طبعًا لم تكن هناك كاميرات فيديو متاحة للجمهور ..

موسيقا هادئة لـ (موزارت) سعيًا للحصول على ما يطلق عليه الروحانيون اسم (تأثير موتسارت أو Mozart Effect) .. يقولون إن موسيقا (موتسارت) بالذات تنشط الظواهر الفائقة للطبيعة ولا يوجد تفسير واضح لهذا ..

« قمنا بتخفيض الإضاءة والتففنا حول منضدة دائرية صغيرة ، وبالطبع كنا نستعمل أسلوب الكوب ولوحة الحروف ، لأنه لم يكن بيننا وسيط موثوق به ..

« طلب (ويليام) استدعاء روح (رونيل السوداء) أو (هيلين) من (تيركونل) ..

« بعد صمت طال بدأنا نشعر بذلك الوجود الثقيل يجثم على أنفاسنا .. بالفعل لم نكن وحيدين ، وأدركت أن الكوب يتحرك حركة لا شك فيها .. ليست مجرد أعصاب تالفة أو خيال زائد بفعل الظلمة ..

« قالت الحروف : ماذا تريدون ؟

« بصوت مسموع قال (ويليام) الذى حضر عشرات الجلسات من قبل إنه يريد معرفة ما تريد (رونيل) أولاً ..

« الانتقام .. هذا هو ما قالته الحروف ..

« لكنك انتقمت بالفعل فى (تيركونل) .. لقد مات أحفاد كل من تسبب فى محاكمتك ..

« وهنا حدث شىء غريب .. لم تعد ترد علينا بالحروف .. بل دوت آهة قوية ثم شعرنا أن صوتًا قويًا خشنًا يأتى من مكان فى الظلام .. بالأحرى يأتى من لا مكان فى الظلام .. وأجفلت بينما شهقت (إسترى) .. إنها حسناء لكنها بلا عقل طبعًا ، وأعتقد أن واجبها نحو نفسها هو الهستيريا ..

« لكن د.(ويليام) قال فى الظلام بحزم :

« لا تفقدا أعصابكما .. الجلسة مستمرة ولم يتغير شىء .. »

هنا عاد الصوت يقول بإنجليزية عنيفة شكسبيرية جدًا :

« أريد الانتقام من البشر جميعًا .. أريد أن أستكمل ما بدأته من ثلاثمائة عام .. »

- « والطفلة يا (رونيل) .. ما ذنب الطفلة ؟ »

- « ذنبها أنه لا بد لى من طفلة .. وكانت هى فى المكان الخطأ فى الوقت الخطأ .. »

حتى هذه اللحظة القصة عادية يا (رفعت) .. هذه جلسة تحضير أرواح يسودها الود والتهذيب ، لو كان شىء كهذا ممكنًا .. وكانت مؤشرات القياس الخاصة بى هادئة حتى هذه اللحظة ..

فجأة بدأ الجحيم الفعلى .. كل المؤشرات بدأت تتراقص بجنون .. تتواثب لأعلى وأسفل .. شريط التسجيل يجرى بسرعة جنونية .. الدخان الأزرق يتصاعد من الأرض كما يحدث فى حفلات الروك المجنونة ..

وبدأت أعصابنا تفلت ، لكن الدكتور (ويليام) كرر النظر بحدة .. عيناه تلمعان ببريق مخيف فى الظلام يجعلك تفضل البقاء حيث أنت ..

فجأة طار الكوب ليرتطم بالجدار ويتهشم إلى فتات ..

الدخان يتزايد إلى درجة أننى بدأت أقلق مما سيحدث ..

ثمة شىء ما خطأ .. شىء يفلت من أيدينا ..

هل هذه الأشياء التى تجرى تحت قدمى هى ...

فئران ؟ بالفعل ..

عشرات منها تخرج من تحت المنضدة .. عشرات منها تركض على السقف والجدران .. من أين تأتى ؟

صرخت فى هستيريا ووثبت عن مقعدى ، وفعلت (إلسترى) شيئًا كهذا على نطاق أوسع ...

فئران .. فئران !

فأر ضخم نوعًا هوى من السقف فوق كتفى فصرخت ، وأزحته بقبضتى ..

فأر آخر هوى فوق المنضدة فأحدث ارتطامًا هائلاً ثم ركض مبتعدًا ..

ـ « لاااااااااااااه !! »

هذه (إلسترى) طبعًا وليس أنا ...

صاح (ويليام) وهو يثب فوق المقعد بدوره :

ـ « اجهضوا التجربة ! اجهضوا التجربة !! »

يا لك من معتوه ! التجربة لم تحمل حتى تجهض .. وقد فشلت على كل حال من لحظةِ تصاعد البخار ..

ـ « لاااااااااااااه !! »

قلت وأنا أركل الأرض مرارًا :

ـ « ألن تصرف الروح أو تصنع شيئًا من هذا القبيل ؟ »

ـ « بلى .. بلى .. انصرفى يا (رونيل) من فضلك !! »

ثم ركض نحو الباب .. أغلقت أجهزة التسجيل الصوتى والمرئى ، وركضنا خلفه بينما (إلسترى) تحولت من عارضة أزياء إلى سرينة سيارة إسعاف ..

ـ « لاااااااااااااه !! »

هذه (إلسترى) طبعًا وليس أنا ...

وفى النهاية كنا فى الخارج نلتقط أنفاسنا .. لم أر هذا العدد من الفئران إلا فى فيلم (نوسفيراتو Nosferatu) .. والسبب هو أن السفينة التى تحمل تابوت مصاص الدماء قد ألقت مراسيها خارج ميناء البلدة ..

مصاص دماء !

ـ « لاااااااااااااه !! »

هذه (إلسترى) طبعًا وليس أنا ...

كان صراخها يجعل الأمر جحيمًا .. لهذا نظرت نحوها فى حزم ، ثم هويت على خدها بأقوى ما استطعت ..

كانت تعرف أن هذه الطريقة تنجح فى السينما لذا أكملت دورها ، وانفجرت فى بكاء صامت وهدأت ..

قال لى د.(ويليام) فى عصبية :

ـ « ما الذى تحاولين عمله ؟ إن البائسة فى صدمة عصبية .. »

ـ « وهذا هو العلاج الناجح للصدمة العصبية .. أو على الأقل هذا ما أعرفه عن الموضوع .. »

ـ « معلوماتك تفاهات .. »

ـ « وأنت لا تفعل شيئًا إلا التظاهر بالغموض والعلم .. »

ـ « لا أسمح لك .. »

ورفع كفه عازمًا كما يبدو على ضربى فى صف أسنانى العليا ، وتأهبت أنا كى أعض قبضته هذه .. ثم توقف وقد بدأ يفهم :

ـ « القصة واضحة .. إنها بثت فينا العصبية والكراهية .. علينا أن نفهم هذا .. »

حقًا .. كنت أشعر بالدخان الأسود يحتشد فى صدرى .. وكان على وشك أن ينبعث من رأسى كما فى القصص المصورة .. هناك نوع غريب من الحقد يعتمل فى نفسى .. على كل حال كنا فى أمان خارج الغرفة وإن عرفت أن القصر فى مشكلة

حقيقية .. أين ذهبت كل هذه الفئران التى ركضت خارجة من الغرفة ؟

قلت لدكتور (ويليام) وأنا أتحسس جبهتى :

ـ « لقد تلقينا الجواب على كل أسئلتنا .. لقد عادت الساحرة أقوى مما كانت .. وهذا الذى يحدث لا علاقة له بالهستيريا أو الهلوسة .. »

قال وهو يجفف عرقه :

ـ « لقد قرأت الكثير ، لكن هذا الذى يحدث يفوق قدراتى .. لقد انفجر بركان فئران فى قصرك .. »

قالت (إلسترى) وهى تجفف دموعها :

ـ « بالمناسبة .. أين الطفلة من كل هذا ؟!!! »

* * *

3 ـ أن تكون هناك ..

باقى خطاب (ماجى) ...

« هرعنا إلى غرفة (إليانور) فوجدناها نائمة كالملائكة .. شخص آخر كان نائمًا كالملائكة هو المسز (أوركهارت) ، التى كانت تجلس جوار فراشها تحتضن كتاب (خرافات أيسوب) وتحتضن دمية كبيرة لدب .. واضح أنها كانت تحكى حين غلبها النعاس .. وابتسمت فى قرارة نفسى لأنها كانت تبدو كطفل بدين كبير أشيب الشعر وهى نائمة .. هذا جزء منها لم أره قط تحت شخصيتها الصارمة ...

« هكذا اطمأننا إلى أن اللعبة القديمة لم تحدث .. نتهمك نحن مع الفئران على حين ينفرد الخطر الحقيقى بالفتاة فى فراشها ..

« ودعت د.(ويليام) و(إلسترى) على أن نتبادل آراءنا غدًا ..

« وكان أول ما فعلته طبعًا هو أن فتشت حجرتى بعناية ، فلم أجد ما يريب .. لو كان القصر مليئًا بالفئران فهى لم تصل هنا .. وهكذا استبدلت ثيابى وحاولت أن أنام وهو نوع من التفاؤل المخجل .. كيف ينام من رأى ما رأيت ؟

« هكذا ظللت فى الفراش كالديدبان حتى أشرقت الشمس .. ثم إننى استقللت سيارتى الصغيرة إلى البلدة لأحمض الفيلم الذى التقطته أمس ، وطلبت إحدى شركات التطهير كى تنظف لى القصر ..

« وعند الظهيرة جاءت سيارة التطهير المميزة التى ثبتت على ظهرها تمثالاً كبيرًا لفأر شرس .. وقد بحث الرجل كثيرًا جدًّا فى الأقبية والحجرات والمطبخ .. ثم قال لى فى حنق :

« من الصعب أن أزعم أننى فتشت القصر كله يا آنسة .. لكن بوسعى أن أزعم أنه لا توجد هنا فئران .. إن لى فى هذه المهنة عشرين عامًا .. يمكن القول إننى أشم رائحتها وأشعر بها قبل أن أراها أو أسمعها .. لا توجد فئران فى هذا القصر .. إنه نظيف كفراش الملكة .. »

كنت أتوقع شيئًا كهذا وإن لم أصدقه ..

هذه فئران من الطراز الذى قلته لك .. فئران (نوسفيراتو) التى تعلن عن وجود الشر ..

بعد الظهيرة وصلنى طرد يحوى الفيلم الذى أرسلته للتحميض ، وهكذا هرعت إلى آلة العرض فقمت بتركيب الفيلم فى لهفة وأسدلت الستائر ، ورحت أنتظر فى لهفة حتى تزول تلك الخدوش والأرقام ..

أخيرًا أرى مشهد تحضير الأرواح .. لحسن الحظ أنه لم يتلف وكنت قد توقعت هذا .. ثمة قوة لا يمكن وصفها أو تعريفها فى هذا المكان .. وهذه القوى تتلف الأفلام فى كل القصص المماثلة ..

كانت الأمور تسير على النحو الذى أعرفه .. لا يوجد جديد ...

فقط بدأ الجديد حين دوى صوت (رونيل) تتكلم ..

هنا فطنت للحقيقة .. كنا ثلاثة على المنضدة فمن أين جاء الرابع ؟!!

كانت الإضاءة سيئة طبعًا لكنى أعدت الشريط عدة مرات وأوقفت الكادر ، وفى النهاية تبينت بوضوح أن هذا الرابع ليس سوى (إليانور) نفسها !

كانت جالسة معنا إلى المنضدة ، وكانت هى التى تتكلم وترد على الأسئلة ..

كانت معنا وإن لم نرها .. لكننا سمعنا صوتها .. كيف عرفت أنه صوتها ؟ لأنها تتحرك معه ، وتحرك يديها ورأسها بما يتفق مع سكناته ..

إنها هى ..

ثم جاء مشهد الفئران الرهيب ورأيت نفسى أركض وسط الدخان والفئران نحو الكاميرا لأغلقها ثم أفر ...

وهكذا انتهى العرض الرهيب .. وجلست أفكر فى معنى هذا الذى رأيته ..

رباه !! تقتلنى رعبًا فكرة أن (إليانور) كانت معنا وترد على أسئلتنا بينما لم نرها .. وبينما هى نائمة فى الفراش جوار مسز (أوركهارت) ..

لم يعد ثمة شك فى أن الطفلة تحت سيطرة مخيفة .. أنا بحاجة إلى من يجيد عمله .. إن (ويليام) يعرف الكثير لكنه لم يصل بعد إلى درجة طرد الأرواح الشريرة .. أعتقد أنه على الأقل يعرف من يعرف ..

والآن ما رأى بطلى الهمام فى هذا كله ؟

أعتقد أن (ماجى) العجوز المنحطة تستأهل مجاملة صغيرة منك .. بعض الجنيهات تنفقها على مكالمة بدلاً من انتظار وصول الرسالة لى ، وهو ما يعنى أننى سأنتظر رأيك عشرة أعوام أخرى ...

(ماجى)

* * *

طبعًا ـ كما ترى أنت ـ كان الخطاب سيئًا .. وكان يحمل أخبارًا نصفها مزعج ونصفها مخيف ..

ليست ظاهرة التواجد فى مكانين فى الوقت ذاته Bilocation بالشىء الجديد على عوالم ما وراء الطبيعة .. إنها شائعة إلى حد بدأت أعتقد أننى الوحيد فى العالم الذى لا يملك هذه الموهبة ..

لكن الفئران ؟ الفئران التى تأتى من لا مكان وتذهب إلى لا مكان ؟

والدخان ؟ لو كان (ويليام) مشعوذًا والمكان ليس دار (ماجى) ، لقلت إن هذه كلها تمثيلية بصرية يراد بها الإبهار .. أما والقصة كهذا و(ماجى) من هى فى الدقة والموضوعية ، فلا جدال فى أن هذا حدث فعلاً ..

وقررت أن الوقت قد حان للاتصال بـ (ماجى) .. نعم .. هى تستحق تضحية كهذه ..

ماذا أقول فى المكالمة ؟ سأنصحها بالتخلص من الطفلة .. لا .. ليس بأن تحرقها فى ساحة البلدة بل بأن تعيدها لأهلها مع شرح مطول عما حدث وما يمكن أن يحدث .. لسوف يزور أهلها خليطًا من الأطباء النفسيين والمشعوذين وطاردى الأرواح الشريرة ، لكن هذه ابنتهم على كل حال ..

ولكن هل تتحول الطفلة فعلاً إلى (رونيل) ؟ هل تم التحول أم هو فى علم الغيب ؟

لا أعرف .. لكنى كذلك أومن أن أحدًا لن يعرف ...

هكذا نزلت من دارى واتجهت إلى أقرب (سنترال) وطلبت الرقم إياه ..

سوف تغرد البلابل بعد قليل .. أى بعد يوم كامل من المحاولات الخرقاء ..

لكن الاتصال تم بسرعة غير معتادة فى هذا الزمن .. سرعان ما وجدت نفسى أمسك بالسماعة وأنتظر سماع الـ (هاللو) المحببة للنفس ، سواء من (ماجى) أو ممن سيقودنى إلى (ماجى) ..

لكن الهاتف ظل يدق بلا استجابة من أحد .. يدق .. يدق .. ثم :

ـ « لا أحد يرد يا أستاذ .. »

قلت لنفسى إن (جراهام) رئيس الخدم صار غليظ الصوت .. بل يتكلم العربية بطلاقة ، ثم فطنت إلى أن هذا صوت موظف الهاتف يخبرنى ألا جدوى هنالك .. هكذا غادرت الكابينة مبلبل الفكر ..

لا داعى لأن أقول إننى جربت الشىء ذاته عدة مرات فى اليومين التاليين ..

ثمة شىء خطأ هنا ..

لم أعتد قط ألا يرد أحد .. لا بد من (ماجى) أو مديرة منزلها أو رئيس الخدم .. ولو كان هناك خطأ ما لما طلبت منى الاتصال بها أو لأخبرتنى بالمستجدات فى خطابها الأخير ..

هناك خطأ ما .. ولكن ما هو ؟

* * *

لا أعرف متى اتخذت قرارى بالعودة إلى (إنفرنسشاير) .. أنا لم أفعل هذا من دهر .. لكنى اتخذته ..

كانت هناك قيمة واحدة مهمة فى حياتى كلها هى (ماجى) ، والمرء لا يفكر مرتين إذا هدد بفقد هذه القيمة .. وأنا حدثتك كثيرًا عنها وتعرف أن ما أحمله نحوها خليط من مشاعر العاشق المتيم ، والطفل نحو أمه ، والتلميذ نحو معلمته ، ووشق الأستبس نحو الأستبس ذاته ..

الخلاصة : لو حدث لها شىء فقد انتهيت .. لا يوجد مبرر للاستيقاظ من النوم صباحًا ولا رؤية شمس جديدة .. سأقبع فى غرفة وحدى إلى أن أموت ، أو سأمشى مفتوح الفم فى الأزقة بأسمال بالية حاملاً عصا ربطت إليها أوراق شجرة ، ولسوف يتسلى الأطفال بقذفى بالحجارة ..

هكذا يمكنكم أن تفهموا لماذا أتجه إلى المطار حاملاً قلقى وحقيبتى وأحلامى ..

(أن تكون هناك) عنوان فيلم شهير لـ (بيتر سيلرز Peter Sellars) .. هذا العنوان يلخص الموقف .. أن أكون هناك .. لا أعرف ما سأفعله حين أكون هناك .. ولا ماذا ينتظرنى .. ولا من أية نقطة أبدأ .. لكنى سأكون هناك ..

وحين ارتفعت الطائرة فى السماء نظرت إلى الأرض المتأرجحة تحتى وشعرت ببعض الراحة ...

* * *



4 ـ فيم تفكر يا بروفسور ؟

من البداية كانت الرحلة غير موفقة ..

هذا طبعًا برغم جو الربيع الذى ينعش النفس والذى أعلن سلطانه على كل شىء .. لم أحتج إلى خيال كبير كى أراه بعباءته الأنيقة التى ازدانت بالورود واليعاسيب والفراش يمشى عازفًا على ناى بين المروج .. الربيع هنا يختلف بالتأكيد عن ربيع مصر حيث الرمد الصديدى وعواصف الخماسين .. من العجيب أن أجمل فصول مصر هو الشتاء ..

ما إن نزلت من سيارة الأجرة ، ووقفت أمام الباب بحقائبى ، حتى شعرت بأن المكان لا يرحب بى كما اعتدت .. تذكرت أيام الشباب فى هذا البيت الشامخ .. والأستاذ العظيم (جيمس ماكيلوب) الذى حلمت أن أكون مثله يومًا ما ، والذى على قدر ما أعلم هو آخر طبيب ينتمى لجيل (ليبمان Libman) و(أوسلر Osler) و(هالستد Halsted) .. وكل أولئك العظام الذين تراهم فى بداية أى مرجع طبى كبير .. هؤلاء السادة بحق .. تصور أن (هالستد) الذى كان يعيش فى (نيويورك) كان يكوى قمصانه فى فرنسا ! فهو لم يكن بحاجة إلى الطب كى يكسب عيشه ، وإنما اهتم به كفن راق نبيل ..

لكم حلمت بأن أرى رأسى الأصلع القبيح بين تلك الصور .. حسن .. لم يتحقق هذا ولن يتحقق ، وإن كنت أزعم أننى حصلت على مكانة بين بين .. لا هى بالرفيعة ولا هى بالوضيعة ..

وفى الوقت ذاته كان السير (ماكيلوب) يعنى لى أشياء أخرى .. يعنى ابنته الرقيقة الدقيقة الأنيقة (ماجى) التى تمشى على العشب دون أن تثنى منه عودًا واحدًا ، والتى قال الجميع إن القصة محتومة .. هذان سيتزوجان يومًا ما .. طبعًا لم يحدث هذا ومن الواضح أنه لن يحدث أبدًا .. لكنى لا أعرف مخلوقين متباعدين على وجه الأرض ، يحملان لبعضهما من الحب والتقدير قدر ما نحمله لبعضنا .. وكما تقول (ماجى) : لعل السبب الأهم فى هذا أننا متباعدان !

فتح لى الباب رئيس الخدم الراقى جدًا الذى كان يثير هلعى (جراهام) .. والذى يتكلم الإنجليزية الأوكسفوردية بتلك الطريقة الملتفة الجديرة بالخواجة (تشرشل) :

ـ « لو سمح لى سيدى ، فإننى سأسمح لنفسى بالقول : إن وجه سيدى ينم عن أن هواء المرتفعات الأسكتلندية يناسب صحة سيدى لو كان لى أن أقول هذا .. »

هكذا وكان بوسعه أن يقول : تبدو لى بصحة طيبة .. وانتهى الأمر ...

المهم أنه فتح الباب لى ، ولم يبد مسرورًا كثيرًا بقدومى .. صحيح أننى أبرقت لهم بموعد وصولى ، ولم أتوقع طبعًا أن تنتظرنى فرقة موسيقا القرب عند مدخل البلدة ، لكنى توقعت أن يكون أكثر ترحابًا ..

قلت له وأنا أدخل الرواق الكبير :

ـ « أين ما ... أين الآنسة (ماكيلوب) ؟ »

قال وهو يغلق الباب :

ـ « إن الآنسة ليست هنا .. لقد ارتحلت إلى (ألمانيا) من أسبوع ياسيدى .. وحسبت أنها أبلغتك بذلك .. »

هوى على هذا الخبر كأنه لسان من البرق .. السؤال هنا هو ...

★ ★ ★

ماذا يحدث هنا ؟ فى كل لحظة أدرك أن هناك خطأ ما وأن الأمور لاتسير على ما يرام ..

إن نوافذ القصر كلها موصدة ، وقد أسدلت الستائر وتم

تثبيتها بشريط لاصق كى لا تفارق النوافذ أبدًا .. كأن النور هو ضيف غير مرغوب فيه هنا ..

دعك بالطبع من رائحة المكان الغريبة .. عطنة قليلاً توحى بالقدم وليس القذارة ..

لقد شممت هذه الرائحة من قبل ، ولكن أين ؟ أين ؟

★ ★ ★

ـ « ما الذى تفعله فى ألمانيا ؟ هى لاتعرف أحدًا هناك .. »

هزّ رأسه بمعنى أنه لا يجد ما يقول ، لكنى فطنت إلى هزال منطقى .. هل أنا أعرف كل من تعرفه (ماجى) ؟

من حقها تمامًا أن تذهب إلى (تمبكتو) لو أرادت فأنا لست وصيًّا عليها ، ولكن هذا الرحيل دون مبرر واضح يثير ريبتى .. خاصة فى الظروف التى ذكرتها ..

لايحتاج الأمر إلى أن تكون (شيرلوك هولمز) كى تعرف أن هذا الرحيل له علاقة بقصة (رونيل) ..

لو كنت أثق بـ (جراهام) أقل لقلت إنه يكذب وإنه تخلص من (ماجى) .. لكن هذا طبعًا كلام فارغ ، لو تذكرنا أن الرجل هو الأخير من سلالة ظلت تعنى بهذا القصر العتيق عبر أجيال عدة ..

فى النهاية عدت إلى وعيى ببطء ، فسألته :

- « والطفلة ؟ »

- « الآنسة الصغيرة مع الآنسة (ماكيلوب) فى ألمانيا .. »

الآن أسقط فى يدى .. ماذا بوسعى أن أفعل ؟ أين أقضى زيارتى ؟ أين ؟

* * *

فى دارنا بـ (كفر بدر) .. كانت هناك حظيرة صغيرة خلف الدار .. وكانت كأية حظيرة مخصصة للمواشى ، لكننا كنا أفقر من الفقر فى تلك الفترة ، لهذا ظلت حظيرتنا خالية مغلقة تؤمها الفئران .. هذه الرائحة هى رائحة الفئران فى مكان مغلق ..

ولكن كيف تنبعث رائحة الفئران فى هذا القصر المُعتنى به جيدًا ؟ دعك من أن (ماجى) قالت إنها لم تجد فئران بشهادة الأخ (طارد الفئران) نفسه ..

هذا البيت تسيطر عليه لعنة مقبضة كئيبة ، ومن حسن الحظ أن (إليانور) ليست هنا .. ربما تخلت قبضتها قليلاً عن هذا البيت الذى أحبه .. ولكن معنى هذا أنها الآن تتسلى بـ (ماجى) ..

ترى ماذا يحدث فى ألمانيا الآن ؟ هذا بالطبع لو افترضنا أنها فى ألمانيا فعلاً .. أعتقد أننى سأجد مذكرة تشرح كل شىء فى ...

* * *

- « فى الغرفة التى أعدتها لك الآنسة .. »

قالها الرجل فى حيادية كأنما سمع ما يدور بذهنى .. أنا لم آت كل هذه المسافة من مصر كى يقال لى إنه لا أحد فى الدار من ثم أحمل حقائبى وأعود ..

على الأقل رتبت (ماجى) لإقامتى هنا .. من يدرى ؟ ربما وجدت مذكرة ما تشرح كل شىء .. ربما هى عائدة سريعًا ..

وهكذا تم ترتيب إقامتى .. عرفت أنه هنا مع مسز (أوركهارت) .. ليس هناك سواهما الآن وربما طاهية شابة ، بعد ما كان البيت يعج بالخدم .. ليس الأمر عن فاقة لأن (ماجى) وارثة لثروة لا بأس بها ، ولكن لأنها لا تستقبل أحدًا ، ولم تعد بحاجة إلى كل هذا العدد من الخدم .. هذا البيت قد شهد أيامًا يستقبل فيها عشرين أستاذًا مرموقًا أو فنانًا شهيرًا أو سياسيًا ناجحًا .. أبوها كان يحب ثانى

أوكسيد الكربون .. بينما (ماجى) مثلى تعشق الأكسجين ومساحات الفراغ الهائلة ..

اقتادنى الرجل بذات الكبرياء عبر رواق طويل تقف الدروع إياها على جانبيه .. كلها تقول لى : انتظر حتى المساء .. سوف نمرح كثيرًا جدًا ..

كأن هذه الدروع الكاملة ذات المنظر البشرى خلقت كى تمشى فى الرواق ليلاً .. بعضها يحمل سيفًا وبعضها يطوح تلك الكرة المعدنية المعلقة من سلسلة .. أنا لم أمر فى حياتى بموقف مماثل ، لكن الفولكلور الأسكتلندى قد جعل هذا شيئًا روتينيًا إلى حد أن المرء سيشعر بخيبة أمل لو لم يحدث ..

أخيرًا يفتح لى باب الحجرة .. كنت أود أن أقول لك إنها حجرة ذات طابع قوطى مفزع ، لكنها غرفة عصرية جدًا ورحبة .. جدران وردية حالمة وزهور وملاءات تناسب خدر عذراء وليس (رفعت إسماعيل) ..

يجب أن أقول إنها كانت تطل على بحيرة بعيدة وسط المرتفعات .. لن أنسى هذه البحيرة ما حييت .. (لوخ نس Loch Ness) .. ربما كان الأخ (نيسى) ـ صديقى القديم ـ

يسبح الآن تحت المياه باحثًا عن شخص يثير رعبه .. لكن الحقيقة إن البشر يثيرون رعبه أكثر مما يثير هو رعبهم .. هل تذكرتنى (ماجى) حين اختارت هذه الغرفة بالذات ؟ يدهشنى كم أن الحاضر الأليم يتحول إلى ذكرى ذات شجون بمجرد أن نبتعد عنه ..

كان أول ما بحثت عنه حين دخلت هو تلك الرسالة .. المظروف المغلق على الوسادة أو على الكومود .. لا شىء .. هى لم تترك لى أى تفسير من أى نوع ..

وشعرت بخيبة أمل .. هناك فصل كامل من الفيلم لم يعرضه عامل العرض النصاب .. لكنى سأحاول استنتاج ما حدث .. لقد جربت هذا الموقف مرارًا فى سينما (....) التى تعرض ثلاثة أفلام معًا .. لهذا كان عامل العرض يحذف فصلين أو ثلاثة من كل فيلم تاركًا الأمر لذكائك الخاص .. لقد اختفى البطل الفلانى .. البطلة تحمل كدمة على وجهها فلابد أن أحدًا ضربها .. إذن البطل الفلانى ضربها واختفى ..

سأعرف كل شىء .. ولكن بعد ما أظفر ببعض النوم ووجبة ساخنة .. إن حبيبات (نيسل) فى خلايا مخى قد نضبت ، وأحتاج إلى وقت أكثر كى تعيد تجميع نفسها من جديد ..

ـ « العشاء فى التاسعة يا سيدى .. »

سرنى هذا .. الرجل يعرف ما أفكر فيه بشكل يثير دهشتى ..

ـ « ستكون السيدة موجودة ! »

سيدة ؟ هل هناك سيدات ؟

رسمت علامتى استفهام بحاجبى المرفوعين ، فقال :

ـ « السيدة (جيلبرت) .. إنها ضيف فوق العادة مثلك ، وأعتقد أن سيدى سيجد فى صحبتها متعة لأنها شديدة الذكاء .. »

ثم انصرف بينما جلست أنا أفكر فى معنى هذا .. من هى ؟ لا أعرف أحدًا بهذا الاسم بين صديقات (ماجى) .. لكن يمكن بسهولة أن أعرف أنها مرتبطة بالقصة .. رحلة مفاجئة إلى ألمانيا .. سيدة (جيلبرت) .. كل هذه حبات فى مسبحة واحدة .. ولكن ماذا ؟

سأعرف .. سأعرف ...

★ ★ ★

أخيرًا اتجهت إلى مائدة العشاء ..

هذا المشهد الرهيب الذى كان يثير رعبى .. فقط فى الأفلام السينمائية يمكن أن تجلس فى قاعة طعام مثل هذه .. لكن الجو كان باردًا ثقيلاً .. لا دعابات وما من حديث دافئ حار ..

ظهرت فتاة نحيلة ترتدى المريولة ، وصبت فى طبقى بعض الحساء على حين وقف (جراهام) يراقب المشهد .. أكره هذا لأننى أشعر بأن الأكل يهبط فى أحشائى بالسم ..

هنا شعرت بوجود غريب ..

رفعت رأسى فرأيت امرأة بارعة الحسن .. بارعة الحسن فى مفهوم البشر الآخرين ، لكنك لن تستطيع أن تبيعها إياى مقابل حزمة من الكرفس .. إنه جمال بارد ثقيل سمج .. لا تحب أن تراه ولا تشعر براحة لدنوك منه ..

كانت ترتدى ثياب السهرة وقد تحلت بمجوهرات لا أفهم فيها ، لكن سعرها بالتأكيد لن يقل عن أربعين جنيهًا ونصف .. نعم .. يبدو لى هذا الرقم معقولاً ..

(أين رأيت هذا الوجه من قبل ؟ هذا الشعور يضايقنى)

ضحكت كاشفة عن أسنان بيضاء هى نوع من الأحجار الثمينة بدورها ، وقالت وهى تمد يدها برشاقة :

ـ « البروفسور (إسماعيل) ؟ »

لست بهذه الثقافة لكنى أزعم أننى أعرف اللهجة الأيرلندية حين أسمعها .. إن من يعرف الإنجليزية جيدًا ويعجز عن تبين اللهجة الأيرلندية لهو فى مشكلة .. كل الحروف المتحركة تنطق خطأ وبطلاقة وحماسة مشتعلتين ..

بفم ملىء قلت :

ـ « هم م م ! »

مددت يدى وأنا أتأهب للنهوض ولمست كفها بإصبع واحد ، ثم عدت ألتهم طعامى ..

ـ « أنا (جلوريا جيلبرت) .. حدثتنى (ماجى) كثيرًا عنك .. »

ابتلعت ما فى فمى بسرعة وسألتها :

ـ « إذن أنت تعرفين أين ذهبت .. لا أعنى أين ذهبت بالضبط .. بل أعنى لماذا ذهبت ؟ »

ابتسمت بغموض وقالت :

ـ « أوه .. أنت تسأل أسئلة كثيرة يا بروفسور (إسماعيل) .. »

هنا قام (جراهام) بما كان يجب أن أقوم به ، فاتجه فى

رشاقة إلى مقعد مجاور لى وجذبه ليساعدها على الجلوس .. فقالت وهى تجلس برشاقة :

ـ « شكرًا أيها العزيز (جراهام) .. أنت لطيف جدًا .. »

وصبت لها الفتاة بعض الحساء ، فراحت تشرب برشاقة من دون الـ (سليرب سليزب) التى أقوم بها .. لقد قمت بتصنيفها على الفور .. إنها (دليلة) أخرى أو (جامعة رجال) .. مهمتها أن يسقط فى حبالها كل من تلقاه .. بعد هذا يتم التصنيف ، كما يفعل الأخ (كارلوس لينيوس Linnaeus) بمجموعة من الخنافس .. هذا لا لزوم له .. هذا يصلح نوعًا .. هذا أحمق ويمكن خداعه بسهولة .. هذا رائع ويجب إبقاءه بلا فكاك ..

كنت أنا خارج القوائم كلها .. وحرصت على أن أترك فى نفسها انطباعًا واحدًا : هى لم تترك لدى أى انطباع برغم هذا الأداء المسرحى الذى تقوم به ...

(ما سر حرف الـ R المعلق فى تلك القلادة ؟ ألم تقل إن اسمها جلوريا ؟؟)

سألتها وأنا أقضم بعض الخبز :

ـ « من أنت ؟ (ماجى) لم تحدثنى عنك قط .. »

ـ « نحن صديقتان حميمتان .. وقد تواريت من عالمها من زمن .. كنت في الولايات المتحدة .. لكنى عدت مؤخرًا .. لم أستطع الذهاب معها ، لذا عرضت على أن أقيم هنا حتى تعود .. وأخبرتنى أن على أن أعنى بك .. كما .. »

واتسعت ابتسامتها أكثر ولمست عقدها بيدها وأردفت :

ـ « كما تعنى هى بك .. »

سرت قشعريرة فى ظهرى لهذا التلميح .. هل هو إغراء ؟ لا أدرى .. لقد وصل إلى أجهزة التحليل المعقدة فى رأسى على صورة تهديد .. تهديد بماذا ؟ لا أعرف .. لكنه أثار ذعرى .. لو أن قاتلاً من مطاريد الجبل قال لى وهو يخرج بندقيته (المقروطة) من جيبه : سنعنى بك .. لما أصابنى كل هذا الذعر الذى أصابنى من كلامها ..

رحت أقطع اللحم بالسكين ، بينما أنا أرتب أفكارى ..

كنت قد رأيت الكثير فى حياتى لهذا صرت أعرف هذه القصص حين أراها ..

سأختصر الوقت والجهد : هذه هى (رونيل) السوداء على الأرجح .. نعم .. لا داعى لإضاعة الوقت فى الاستنتاجات .. (ماجى) تختفى فى هذه الظروف والقصر خال .. بينما

تظهر امرأة أقل ما نقول عنها إنها خطرة .. امرأة يبدو أنها تعتبر الدار دارها وتسيطر على كل شىء .. المنطقى هنا أن هذه (رونيل) السوداء أو ـ لنقل ـ امرأة على علاقة وثيقة بها .. دعك من أننى سمعت هذا الصوت الناضج الخشن من قبل .. ودعك من أن هذا تفسير مريح لحرف R المعلق فى عنقها .. هذا تلميح (شبحى) خفيف اعتدته من قبل ..

لقد شعرت معها بنفس ما شعرت به حين كنت أكلم تلك الكاتبة (لورين) جوار المقبرة .. الفارق الوحيد هو أن (لورين) كانت بريئة تفتعل الغموض .. فماذا عنك يا أختاه ؟

ولكن أين (ماجى) والطفلة من هذا كله ؟

يبدو أنها تقرأ أفكارى بشكل ما لأنها قالت فى ثبات وهى تنظر لوجهى :

ـ « فيم تفكر يا بروفسور ؟ »

★ ★ ★

5 ـ السيدة تظهر ..

انتهى العشاء فجففت فمى بالمنشفة .. وكنت متعبًا كحيوان (الكسلان) بعد عناء يوم شاق من السفر بكل وسائل المواصلات الممكنة ، لذا وجهت شكرًا رقيقًا لـ (جراهام) وأعلنت أننى ذاهب إلى غرفتى ..

ثم هززت رأسى لها فى لطف وانسحبت ..

أخيرًا أنفرد بالحجرة التى تحمل فى كل ركن منها لمسات (ماجى) .. أعرف أنها كانت هنا وأعدت كل شىء ثم ذهبت .. ذهبت لأين ؟ هل هى بخير ؟ لا أعرف ...

المشكلة هنا أننى لا أملك خططًا من أى نوع .. لا أعرف حركة واحدة فى لعبة الشطرنج هذه ..

لكننى على الأقل كنت أملك استنتاجات .. الاستنتاج المنطقى الأول هو أن ما يحدث له علاقة بـ (رونيل) .. الاستنتاج الثانى هو أن شيئًا ما قذرًا يجرى هنا .. الاستنتاج الثالث ليس استنتاجًا لكنه حدس أو شعور فى أحشائى كما يقول الإنجليز Gut Feeling أن هذه المرأة المتحذلقة هى (رونيل) .. ما هو دليلى ؟ لا دليل سوى حدس الأحشاء

هذه .. وأحشائى لم تكن يومًا بحال طيبة على كل حال .. إن قرحة المعدة والإمساك والتهاب القولون لا يتركون لها فرصة كى تشعر بشفافية ..

لو كانت هذه المرأة هى (رونيل) السوداء فأنا فى مأزق .. مأزق شنيع ..

يومًا بعد يوم صرت أقبل هذه الخوارق العجيبة كأنها حقائق .. ويبدو أننى صرت مخرفًا حقًا ..

لكن لو لم تكن تلك المرأة (رونيل) فأنا فى مأزق آخر .. لا يوجد أى شىء أفعله على الإطلاق ..

كنت قد فرغت من إفراغ حقيبتى حين دق الباب .. طبعًا صار هذا الموقف بدوره مكررًا .. ستكون هى ولسوف تطلب منى شيئًا تافهًا .. شباك غرفتها لا يغلق أو شباك غرفتها لا يفتح .. طبعًا الغرض الوحيد هو تعميق علاقة ما .. والعلاقة ليست لسواد عينى ولا لوسامتى التى تخجل الشمس منها ، ولكن لأكون الأحمق الذى يتم توريطه فى شىء ما ..

لقد مررت بهذا الموقف ألف مرة من قبل ومن بعد ، ويبدو أن فى مظهرى ما يوحى بأننى ذلك الأحمق الذى

يعتقد أن حسناء هامت به حبًا بعد خمس دقائق من لقائهما ..

شعرت بغيظ عارم من كل هذه الإهانات التى أتلقاها بلا سبب وفتحت الباب فى عصبية ..

كانت هى بالفعل ..

السيدة (جيلبرت) ...

(أين رأيت هذا الوجه من قبل ؟ هذا الشعور يضايقنى)

قالت لى وهى تستند إلى الباب فى إنهاك :

« أوه .. إنه الصداع .. الصداع اللعين .. بحق (أبراكساس) .. خطر لى أن المرء سعيد الطالع إذ يكون فى الغرفة المجاورة له بروفسور فى الطب .. »

ثم وضعت يدها على صدغها لتبين لى كم أن الألم شنيع هنا ..

بحثت فى حقيبتى حتى وجدت أقراص الأسبيرين ، وناولتها ثلاثة .. حرصت على أن يحمل وجهى كل معالم المقت والاشمئزاز كأنها جاءت تطلب غدتى التيموسية وليس علاجًا للصداع ..

(أبراكساس ؟ هل قالت : بحق أبراكساس ؟)

أمسكت بالأقراص فى قبضتها كأنما تزنها ، وكأنما ترى هل تنجح هذه الأقراص الخفيفة فى علاج صداعها العظيم ، ثم قالت :

« أوه .. شكرًا .. لطيف .. لطيف .. »

ثم تقدمت إلى داخل الحجرة ، وبحركة مسرحية رفعت الأقراص إلى شفتيها المخضبتين بالأحمر ، وقالت :

« هل يسمح لى الأستاذ العظيم بكوب من الماء ؟ »

(أبراكساس ؟ هل قالت : بحق أبراكساس ؟)

لا أعرف إن كنت قليل الذوق ، أم أن الإنهاك والتوتر جعلانى كذلك .. لكنى وجدت نفسى أتكلم بلا توقف وكانت كلماتى عصبية تحمل الكثير من الإهانات :

« بالطبع ليس عندى .. ودعنى أقل لك إن هذه الحركات المسرحية لا تؤثر فى .. إن كان الغرض هو خداعى ـ وهذا ما أرجحه ـ فقد اخترت الشخص الخطأ .. وإن كان الغرض إغرائى ـ لسبب لا أعرفه ـ فقد اخترت أكثر الأشخاص خطأ فى العالم .. فأنا لا أريد من الحياة إلا أن أراقبها تحت المجهر ، بالإضافة إلى أنك ـ واغفرى لى خشونتى ـ لا تروقين لى على الإطلاق .. ولربما لو كنت فأر المنك لفكرت فى الأمر ،

أو خضت نوعًا من الصراع مع نفسى .. أما وأنت أنت فإننى أتمنى لك ليلة طيبة ، وأرجو أن تفكرى فى كل الأدوية التى قد تريدينها الليلة .. فأنا لن افتح بابى ثانية .. »

أنهيت هذه الكلمات وعجبت أننى قلتها .. لو كانت هذه (رونيل) فقد انتهى الأمر .. لا أحتاج إلى أكثر من هذا كى أقضى حياتى فأرًا .. ولو لم تكن (رونيل) فلسوف توجه لى صفعة جديرة بالأساطير .. ربما تطير لى قاطعين ونابًا ..

فقط نظرت لى للحظة ...

(أبراكساس ؟ هل قالت : بحق أبراكساس ؟)

نظرة باردة طويلة .. بلا أى تعبير .. المخيف أنها بلا أى تعبير ..

ثم ـ دون كلمة واحدة ـ غادرت الغرفة .. وأغلقت الباب وراءها ..

يبدو أننى كنت مخطئًا .. لقد آذيت شعور هذه الفتاة البريئة المصابة بالصداع .. لن أكف عن لعب دور الأحمق ما حييت .. على كل حال أنا فى حالة عصبية كريهة .. من الخير لها ألا تحتك بى أبدًا ..

غسلت أسنانى وارتديت منامتى .. وتأهبت لليلة طويلة مريحة .. سأنام كجثة من العصر (الباليوزى) .. حتى وإن كنت قلقًا فلسوف أقلق بشكل أفضل حين أصحو وأسترد قواى ..

(ماجى) العزيزة .. أين أنت ؟

شىء فى أعماقى خافتًا كقطعة جمر تحت الرماد ، يقول لى إن الأمر ليس بهذا التعقيد .. ستعود (ماجى) سالمة .. على الأرجح هى سمعت عن طبيب نفسى ألمانى بارع وقررت أن تجرب حظها مع الطفلة هناك .. رحلة خاطفة وتعود بعدها ..

طك .. طك !

هذا صوت الباب لو لاحظتم ..

هذه المرة لن أكون فظًا .. سأتكلم بشىء من العقل والهدوء ..

اتجهت للباب وفتحته .. هنا وجدت (جراهام) الوقور يقف حاملاً كوبًا على صينية أنيقة ، ويقول برصانة :

« أوامر الآنسة (ماكيلوب) .. معذرة يا سيدى .. لكن بوسعك ألا تشرب .. »

نظرت للكوب فى عناية .. هذا لبن بارد ممزوج بالشيكولاته .. لمسة أخرى من لمسات عناية (ماجى) بى ، فهى لم تنس أننى كنت أشربه قبل النوم فى الزمن الغابر .. تفاصيل كهذه تدير رأسى حقًا .. وقد كففت عن شرب اللبن أساسًا من زمن لكن اللبن لا يُردّ .. دعك من تلك اللمسة الرقيقة .. حتى بعد رحيلها حرصت على أن ...

ـ « شكرًا يا رجلى الطيب .. »

وتركته يضع الصينية على النضد .. ثم خرج وأغلق الباب ، فرفعت الكوب إلى شفتى ورشفت رشفة طويلة .. طويلة .. وكأن هناك شلالاً يصب الذكريات فى قلبى ..

أغلقت النور ورقدت فى الفراش أتأمل تلك الشاشة السوداء المعلقة فى هواء الغرفة ، والتى تعكس أفكارنا بوضوح ..

قلت لنفسى وأنا أتثاءب : برغم كل شىء .. هذه المرأة هى (رونيل) ذاتها .. الآن أتذكر من هو (أبراكساس) هذا .. إنه من شياطين العالم السفلى ذوى الشهرة والشعبية .. مثله مثل (بيلفاجور) و(عشتروت) وسواهم ..

لم تقلها سهوًا ، ولكن كانت تنقل لى رسالة واضحة ...

لكن ما هى ؟

★ ★ ★

الصباح ...

الشمس الأسكتلندية الجميلة تتسلل من النافذة ، وأنا لم أر الشمس الأسكتلندية إلا ست مرات فى حياتى ..

يا للعذوبة ! هذا هو الربيع الذى أحكم سيطرته على كل شىء .. لم تعد هناك تفاصيل منسية ..

بحيرة (لوخ نس) تتمطى بعد نعاس طويل ، ومن بعيد ترى التلال التى غطتها الخضرة ..

إنه موعد الإفطار .. إن الشاعرية تحرك لدى غريزة الجوع ، ولا أعرف السبب .. ملاحظة سبقنى إليها العبقرى (أحمد رجب) حين وصف ما يسمى بالغدة (الأكلوغرامية) التى تجعل العاشق يترنم ناظرًا للسماء قائلاً : (آه يا ليل يا قمر) .. ثم ينظر إلى أسفل قليلاً فيقول من دون مناسبة : و(المنجة طابت عالشجر ..)

قررت أن أنزل إلى الحديقة قليلاً .. هناك حديقة لا بأس بها أبدًا هنا ، وقد شعرت أننى ـ ربما منذ زمن سحيق ـ أريد أن أرى الأزهار .. إننى أكتسب عادات سيئة فى الفترة الأخيرة .. يبدو أننى سأحب الأطفال كذلك ..

خرجت من القصر ، ومشيت فى الحديقة .. ترى من يعنى بها الآن ؟ لا بد أن هناك بستانيًّا غير متفرغ يأتى للعناية بها لأن شأنها أعقد من أن تكلف بها مسز (أوركهارت) أو(جراهام) ..

الآن أنا أمشــى تحت نـافذتى .. أراها من أسفل .. أطأ العشب فأشم رائحته الطازجة الرطيبة ..

هذه نافذة أخرى مفتوحة .. لا أحتاج إلى ذكـاء كبير كى أعرف أنها نافذة تلك المرأة الغامضة .. ترى هل أفاقت من نومها ؟ ترى كيف تبدو فى الصباح ؟

وابتسمت فى سرى .. كما يقولون : لا يحتاج الأمر إلى معجزة كى تكون جميلاً فى الربيع !

ثمة أشياء غريبة نوعًا على الأرض .. يمكن ألا تراها لكنى فعلت .. وقد انحنيت على ركبتى لأتفحصها بعناية أكثر .. بدلت عويناتى لأحسن مجال الرؤيـة .. الإرسال التالف قد تحسن بعد ضبط الهوائى ...

هذه أشلاء أرنب .. لا أعـرف سببًا واحدًا لوجود أرنب هنا ، لكنه بحال طيبة والطقس دافئ .. لم تكن هذه بقايا وجبة مـن وجبات (إليـانور) الصغيرة التى تـأكل الفئران وإلا لتعفنت ..

ثم ما هذا أيضًـا ؟ حمامـة وعصفور دورى رقيق .. لقد تمت إزالة الريش عن بطـن الطـائرين ، وتم تمزيق البطن بعناية ربما لانتزاع الأحشاء ..

لا أعرف السبب فى وجود هذه الأشياء .. هل رزقهم الله بنمس ؟ لكن هل النمس يزيل ريش ضحاياه قبـل التهامها ؟ نمس انتقائى جدًّا يمارس عمله كأساتذة الجراحة .. بل هو راق كذلك ..

الخلاصة أننى لم أشعر براحة لما رأيت وهذا من حقى .. لكن ما هو أسوأ هو أننى لا أفهمه ..

هل تلك المرأة تجلس وحدها فى حجرتها ، تتسلى بـأكل الأرانب والعصافير الدورية نية ؟

كنت لأقبل هذا التفسير وأرحب به- لو أنها التهمت هذه الكائنات البريئة بالكامل ..

وهكذا تبدل مزاجى إلى النقيض ولم يعد الربيع يبدو لى ربيعًا إلى هذا الحد ..

عدت إلى الداخل ، وتمنيت لو أعتذر عن الإفطار .. لكنى أمقت الأسئلة الكثيرة ..

* * *

ـ « أخبرتنى أن علىّ أن أعنى بك .. كما .. »

واتسعت ابتسامتها أكثر ولمست عقدها بيدها وأردفت :

ـ « كما تعنى هى بك .. »

★ ★ ★

على مائدة الإفطار وجدت كوب اللبن بالشيكولاته إياه .. كان هناك عصير برتقال وقهوة .. لكنى وجدت نفسى راغبًا بحق فى أن أظفر بالشىء الوحيد الذى يحمل أثر (ماجى) هنا .. أن أشعر به فى أحشائى .. وأن يسرى فى عروقى ..

قلت لها فى سرى :

ـ « يا لك من خائنة .. تخليت عنى وسط هذه الألغاز .. وكنت آمل فى أن تكونى بجانبى .. »

وأفرغت كوب اللبن فى جوفى ، ثم جففت بمنديل ورقى ذلك الشارب الأبيض الذى تكون لى حتمًا ، بينما سمعت خطوات السيدة قادمة ...

جلست جوارى .. فرفعت عينى نحوها متسائلاً ..

كانت مشرقة كالشمس .. وخطر لى أن مزاجى السيئ أمس جعلنى لا أحسن القول ولا الفعل ..

ولا تقدير الجمال !

إن من لا يعتبر هذه السيدة واحدة من أجمل خمس نساء على وجه الأرض ، فلابد أنه مجنون أو كفيف .. صحيح أنه (لا يحتاج الأمر إلى معجزة كى تكون جميلاً فى الربيع) .. لكنك تحتاج إلى مليون معجزة كى تكون فاتنًا فى الربيع ..

قلت لها متوددًا :

ـ « أرجو أن يكون الصداع قد زال .. »

نظرت لى وابتسمت .. لقد زالت العاصفة إذن وكلماتى لم تترك ندبة لا تزول ..

(لم تربط معصمها ؟ هل جرحته أمس ؟)

قالت :

ـ « الصداع زال فعلاً وإنى لك لشاكرة .. كما زال أثر كلماتك القاسية .. »

ـ « كنت مرهقًا بفعل السفر لا أكثر .. وكنت أشعر أن الكون يستفزنى فى مباراة كلامية .. »

ـ « كلنا ذلك الشخص .. ألسنا كذا ؟ »

وراحت تنقل لطبقها كميات هائلة من (البيكون) الذى لم

أمسسه بطبيعة الحال .. لكنى اندهشت من تلك المـرأة التى تبدأ يومها بالتهام كل هذا اللحم ..

وكالعادة سمعت السؤال فى ذهنى .. هى بارعة جدًا فى سماع الأفكار كما لاحظت ..

قالت وهى تنقل المزيد :

ـ « أنا على نقيض النباتيين تمامًا .. أؤمن أن اللحم والسـمك والبيض هم عماد الجمال .. إن جسدك يتكون من البروتين ، فكيف تعطيه مـا ليـس بروتينيًـا ؟ دع للنبـاتيين طعـامهم ينعمون به .. يأكلون الكرفس على الإفطار والبطاطس علـى الغذاء والبازلاء فى العشاء ، ثم يقولون إنهـم يبحثـون عن الخلود والجمال .. »

قلت باسمًا :

ـ « يسهل الاعتقاد بصحة نظريتك حين ينظر المرء لـك طويلاً .. لقد بدأت أفكر فى شراء بقرة حية لأضعها فـى مطبـخ دارى بالقاهرة .. ولسوف اقتطع منها قطعة قبل كل وجبة ! »

ضحكت طويلاً فضحكت أنا الآخر .. يحب أى رجل المرأة التى تضحك لدعاباته .. ثم سألتها :

ـ « لا أريد التدخل فى شئون خاصة .. لكن أين المستر (جيلبرت) ؟ »

ابتلعت ريقها .. وصـارت كلماتهـا بطيئة مما جعلنى أوقن أن هذه ذكرى أليمـة أو علـى الأقل ليس لـى حق السـؤال عنها :

ـ « نحن منفصلان .. وآخر ما سمعته عنه أنه فى ألمانيا .. وأنه سجين .. »

انتهى الطعام فخرجنا معًا نمشى على شاطئ (لوخ نس) ..

كنت سعيدًا كخنزيـ... كدودة فى مقبرة جماعية (مـا دمتم لا تحبون التشبيهات الصادمة) .. وبدا لى أن كل ما شـعرت به أمس كان وهمًا ..

لا أعـرف متى تأبّطت ذراعى وراحت تتحدث .. تتحدث عن أشياء كالحلم لا تعرف ما هى ولا تذكرها ، لكنك تنبهر بهـا .. وبـدأت أدرك أننـى لسـت قبيحًـا إلـى الحـد الـذى حسبته .. إنها لا تفتعل شيئًا .. هى فعلاً تميل لى ..

وعنـد العصـر كـانت تجلـس علـى صخـرة تطـل علـى البحيرة ، وبصوت رخيم عميق راحت تغنى .. كانت تغنى

أغنية لاتينية لم أفهم منها حرفًا لأنها تبدو للأذن كصفحة من كتاب تشريح (جراى) .. لكن هذا بالضبط ما أريد ..

★ ★ ★

يقولون : اقتل أى شخص يتكلم اللاتينية بطلاقة ، ما لم يكن هو القس الكاثوليكى ..

★ ★ ★

عندما جاء الظلام ، تناولنا العشاء معًا ونحن لا نبعد عيوننا عن بعض ..

كنت فيما مضى أسخر من فلسفة (السوليبسيزم Solipsism) أو إيمان الشخص بأنه لا حقيقة فى الكون إلا ذاته .. لكنى بدأت أعتقد أننى كنت أحمق .. هناك حقيقتان .. أنا وهى ..

ما أجمل هذا ! القصر كله لنا للأبد .. وحيدان عند نهاية العالم ، حيث لا صخب يعكر صفونا إلا صيحات (نيسى) العزيز فى الليل لو كان ما زال فى البحيرة ..

وحين عدت إلى فراشى رحت أدندن وأنا أنظر إلى الليل الصامت بالخارج :

ـ « ابتديت دلوقتى بس .. أحب عمرى .. ابتديت دلوقتى أخاف للعمر يجرى ! »

وهنا ـ كالعادة ـ تذكرت شيئًا .. دائمًا أتذكر شيئًا قبل النوم كأن ذلك العقل الواعى فى داخلى لم يكن معى .. كان منهمكًا يقلب الدفاتر والمراجع وعويناته على أنفه .. كئيبًا جادًّا كموظف أرشيف لا يعرف المزاح .. مفتش فى الجهاز المركزى للمحاسبات لا يرتشى ولا يسعى إلا للحقيقة .. وفجأة فى هذه اللحظة بالذات يعلن ما توصل إليه بعد يوم شاق من العمل :

ـ « قلب حمامة .. كلية أرنب برى .. كبد عصفور دورى .. ربما رحم (سنونو) كذلك .. (رفعت) يا بنى .. هذه هى مقادير (رحيق الحب) الذى كانت الساحرات يصنعنه فى القرون الوسطى ! »

قلت فى لا مبالاة وأنا أصاحب الإيقاع بأناملى على خشب الفراش :

ـ « وما فى هذا ؟ »

ـ « معناه أن تلك المرأة كانت تحضر لك ذلك المزيج فى غرفتها أمس .. وأنت شربته ! غالبًا مع اللبن الممزوج بالشيكولاته .. »

ـ « وما المشكلة ؟ »

ـ « رحيق الحب يا أحمق كانت الساحرات يقدمنه لأى شخص يرغبن فى أن يقع فى هواهن .. إنهن يمزجن هذه الأشياء بقليل من دمهن .. ألم تر أن معصمها مربوط اليوم ؟ »

ـ « وما فى ذلك ؟ »

ـ « ألا ترى أنك تميل إليها بشدة ؟ وأن رأيك تغير كثيرًا جدًا ؟ »

قلت فى ضيق وأنا أغلق عينى :

ـ « كيمياء الحب تعمل أحيانًا بشكل تلقائى .. لا يجب أن تشرب مزيجًا من رحم السنونو والدم كى تقع فى الحب .. »

كاد يتكلم لكنى أخرسته مغنيًا بصوت عال :

ـ « إللى شفته .. قبل ما تشوفك عنيا ..

ـ « عمر ضاااااااايع .. يحسبوه إزاى عليا ؟ »

* * *

إللى شفته !!

* * *

6 ـ اجتماعيات ..

ما حدث بعد ذلك ؟

آه !!! تسأل أسئلة غريبة ..

كيف لى أن أعرف ما حدث بعد هذا ؟ إن السعادة لا تحكى ولكن تعاش .. عدّ قصائد الهم والأسى والشجن فى الأدب العربى والعالمى ، ستجدها ملايين .. عدّ قصائد الهناء والرضا والنشوة فلن تجدها تقريبًا .. الكلام للشكوى أما الصمت فلتذوق اللحظة الآتية .. وقد كنت أتذوق اللحظة الآتية حقًا ...

أيام كأنها الحلم .. أيام هى الحلم .. أيام فاقت الحلم .. أيام يحلم بها الحلم ..

(جراهام) يمر بنا من بعيد ليبتسم .. إن الوغد يعرف كل شىء .. إنه يعمل فى صفها .. لم يكف عن جعل إقامتنا مريحة قدر الإمكان ..

ترى متى ينتهى هذا الحلم ؟ كيف ينتهى ؟

لم أخبرك طبعًا بالتفاصيل كلها .. لقد تزوجت !! ألم تعرف بعد ؟!!

لا أعرف كيف أحكى هذا الجزء لأنى بالفعل لا أذكر عنه أى شىء .. لكنها أكدت لى ذلك ، وقالت إننا تزوجنا كما يفعل المسلمون ، حين قصدنا (أدنبرة) وطلبت مشورة الجالية المسلمة هناك .. هكذا قالت ولا أستطيع أن أنفى أو أؤكد .. لماذا تكذب علىّ ؟ أين الأوراق ؟ لم تأت من (أدنبرة) بعد ..

فقط أعرف أن هناك صورًا لى أضحك فى بلاهة وأجلس معها وسط مجموعة من الناس فيما يشبه حفل زواج .. بعض وجوه هؤلاء يمكن أن تكون لعرب .. هناك خاتم حول إصبعى .. تقول إننا اشتريناه فى ذلك اليوم من أدنبرة ..

حقًا لا أذكر شيئًا من هذا لكنى أثق فيما تقول ..

فقط رحت أضحك حتى استلقيت على قفاى .. هنا بالذات ؟ ومع هذه المرأة التى لم أكن أعرف عنها حرفًا من أسبوع ؟ هل هكذا تنتهى أسطورة العزب الأبدى (رفعت إسماعيل) ؟

كل الثرثرة عن حياتى التى لا تتحملها زوجة ؟ كل الرومانسية الصناعية مع (هويدا) وكيف انهار كل شىء فجأة ؟ كل قصتى الأبدية مع (ماجى) ، والكلام عن وجه

القمر الذى من الخير لنا أن نبقى بعيدين ؛ كى لا نرى ما عليه من فجوات وبثور ؟ كل عروض (عزت) و(محمد شاهين) ؟ كل هذا انتهى هنا ومع (جلوريا) ؟

انتهت أسطورة العزب الأبدى .. فارس (النينجا) المتوحد الذى لو تزوج لفقد سر تميزه ..

أتمنى فقط أن أرى وجه (ماجى) لو كانت حية حين تعود لتجد أننى تزوجت أعز صديقة لها ! والجميل أننى أمضى شهر العسل فى قصرها بالذات !

مصر ؟ لم أعد أذكر كم بقيت هنا .. العمل والشقة و(عزت) وقريتى .. هل هذه الأشياء وجدت حقًا ؟ إنها حلم بعيد .. لابد أننى هنا منذ قرون .. منذ أطلق (التيروداكتيل) صرخة الميلاد وحلق فوق برك القطران ، حيث تغرق الديناصورات على الأقل حظًا .. منذ انفصلت الأمريكتان عن إفريقيا وغاضت (الأطلنطس) فى قاع المحيط ..

حقًا كانت (جلوريا إسماعيل) ـ نعم .. هذا هو اسمها الآن ـ ساحرة .. لكن أى سحر !

رحيق الحب ؟ وما فى ذلك ؟ ما أجمل أن تريدك المرأة لدرجة أن تقضى الوقت فى صنع تلك الوصفات المقززة لتفوز بك .. هذا يزيد من قدرها فى نظرى ...

ويبدو أننا مشينا على شاطئ (لوخ نس) ملايين المرات .. يبدو أنها غنت باللاتينية آلاف المرات .. يبدو أننى قطفت لها كل زهور (جرامبيان) .. وشربت العشرات من أكواب اللبن الممزوج بالشيكولاته ..

فقط هناك أشياء تضايقنى ..

أشياء صغيرة جدًا ..

كنت قد انتقلت للإقامة معها فى غرفة أوسع أعدها لنا (جراهام) .. وأول ما لاحظته هو أن هناك ضجيجًا يأتى من داخل الجدران .. بالذات فى الليل .. كأن هناك ممرات سرية تمشى فيها الفئران .. صوت الخدوش المستمر هذا ...

و(ماجى) الحمقاء تزعم أنه لاتوجد فئران فى هذا القصر ..

ثم عاداتها الغريبة .. عادات (جلوريا) لا (ماجى) طبعًا ..

تخيل أن تدخل الحمام بعد دقائق من استحمام شخص فيه بلبن الحمير ! هذا شىء غريب .. لكنى سمعت عن هذه العادة من قبل ، وهى إحدى وسائل التجميل الشهيرة للحفاظ على نضارة الجلد .. لكن .. لبن حمير ! ومن أين تأتى بكل هذه الكمية فى (إنفرنسشاير) أنا الذى لم أر إلا حمارًا واحدًا فى مرآة الحمام ؟

مثلاً ما كل هذه الأعشاب الغريبة التى تحتفظ بها فى الشرفة لتجففها كما تفعل أمهاتنا مع الملوخية أو النعناع ؟

مثلاً .. ما سر أدوات التجميل الغريبة التى تحتفظ بها هنا ؟ أدوات تجميل من خامات طبيعية ولا تمت بصلة لأية شركة أعرفها .. ومنذ متى كانت الضفادع الميتة مهمة للتجميل ؟

لكن هذه أشياء بسيطة جدًا .. سمعت عن نساء يضعن القشدة على وجوههن ، ويثبتن قناعًا من قشر الخيار ، مع وضع نصف ليمونة على كل جفن .. حتى يصعب عليك أن تتصور أن هذه امرأة وليست زومبيًا سينهض بعد قليل ليفتح جمجمتك ويلتهم مخك ...

إن المرأة من أجل الجمال تفعل كل شىء ، وليست (جلوريا) باستثناء ..

ولا أنكر هنا أن أساليبها ناجعة .. إن النتيجة تتحدث عن نفسها بلا حاجة إلى أية إيضاحات أخرى ..

فقط كن صريحًا معى .. لا تقل إلا الحق .. هل رأيت فى حياتك من هى أجمل وأرق أو أكثر فتنة منها ؟ ألا ترى معى أنها المادة الخام للأنوثة .. حتى لتشعر بأن النساء الأخريات هن أجزاء منها ؟

* * *

وقالت لى :

ـ « هل تريد أن تستعيد شبابك ؟ بوسعى ذلك .. فقط دع نفسك لى .. »

قلت لها باسمًا :

ـ « جربت ذلك ذات مرة ، وكانت النتيجة مؤسية .. وكانت أستاذ فلسفة تبدل لى كوافيلى المتسخة لمدة أسبوع .. أما إن كنت تتكلمين عن الخلود فهو مستحيل .. ولو حدث جدلاً ـ وهو كما قلت مستحيل ـ فلن يزيد على موقف (تيتون) و(أورورا) فى الأساطير الإغريقية .. لقد منحته الخلود لكنه ظل يشيخ إلى أن فقدتْ القدرة على تحمله وقد صار عجوزًا طاعن السن .. هكذا أحالته نطاط حقل .. »

قالت باسمة :

ـ « هل تظن أننى قد أحيلك نطاط حقل يومًا ما ؟ »

نظرت لعينيها الزرقاوين الواسعتين وقلت بصدق :

ـ « نعم .. للأسف نعم .. »

* * *

لا أدرى لماذا خطر لى ذات مرة أن أدخل حجرتها القديمة .. إننى أعرفها لأنى وقفت تحتها ذات مرة ..

كان الباب مفتوحًا والإغراء قويًا .. وخطر لى أننى أريد أن ألقى نظرة على زوجها السابق .. لابد أن له صورة على الكومود .. هو مجرد فضول لا أكثر ولا يعنى شيئًا ، لأن بوسع أى شخص فى العالم أن يكون أجمل وأقوى منى .. هذا لا يحتاج إلى موهبة ما .. كل شخص يمكن أن يكون جميلاً فى الربيع ، وكل شخص يمكن أن يكون أفضل من (رفعت إسماعيل) ..

(لكننى تزوجتها برغم كل شىء .. وحُرمت أنت منها يا أحمق !)

بالفعل كانت الغرفة خاوية تمامًا .. لقد أفرغت من أكثر الأشياء التى تخصها ، ويبدو أنه لم يتم تنظيفها من فترة طويلة .. إن المسز (أوركهارت) مسنة طبعًا ، ولا أتوقع منها أن تعنى بكل التفاصيل ..

الغريب هنا أن الستائر جميلة جدًا .. بنفسجية من أرق وأجمل درجة يمكن وصفها برغم مقتى لهذا اللون عامة .. هناك ورق حائط زاهى اللون مزركش بالأزهار .. وهناك دمى معلقة .. لا ليست دمى (فتيش) ولكن دمى لشخصيات (ديزنى) .. وهناك قضيب قطار ألعوبة يدور حول نطاق الغرفة كلها .. قطار صغير مضحك له عينان وشارب بدلاً من الكشافات وعارضة التصادم الأمامية ..

هذه الغرفة لا تناسب امرأة ناضجة ، وبالتأكيد لا تناسب ساحرة ..

أزحت ستار النافذة ورحت أرمق المشهد من عل .. من هذه النافذة ألقت ببقايا السنونو والأرنب .. ولابد أن الحجرة كانت تختلف عن هذا كثيرًا .. ذلك الشيء منطقي فلا يمكن أن تترك أي أثر سابق يدل على نشاط مريب ..

هنا سمعت موظف الأرشيف الجالس في ذهني يتململ ..

★ ★ ★

« كنت الآن أقف أمام غرفة (إليانور) بالضبط .. تلك الغرفة التي أحلتها قطعة من (ديزني لاند) بالستائر الجميلة ، وورق الحائط المزركش بالأزهار ، وكل الدمى التي نثرتها فيها .. إن الشيطان الذي يتسلل إلى هذه الحجرة لهو شيطان طفل بالتأكيد .. »

★ ★ ★

(ماجي) قالت هذا في خطابها .. فلماذا أتذكره الآن ؟

يوجد خاطر أبله يتلاعب في ذهني ولا يمكن أن نعطيه أي قدر من الاهتمام أو الاحترام ..

لكن .. أنت رجل منطقي .. والمنطق يؤكد شيئًا واحدًا .. هذه كانت حجرة (إليانور) الطفلة يومًا ما .. ثم تركتها .. فلماذا اتخذتها (جلوريا) مسكنًا لنفسها ؟

ومن جديد أواصل البحث عن دليل ما ..

هناك حمام ملحق بالغرفة كغرف الفنادق والمستشفيات .. أفتحه وأدخل ..

توجد مرآة .. يوجد مغطس صغير .. ثمة ثياب معلقة وراء الباب ومكدسة في حاوية صغيرة من البلاستيك .. لماذا لم تأخذ (جلوريا) هذه الثياب معها بعد انتقالها إلى (عش الزوجية) ؟

لست فضوليًا إلى هذا الحد ، لكن شيئًا في هذه الثياب جعلني أتفحصها بعناية ..

السبب هو الحجم .. ثمة ثياب قصيرة صغيرة الحجم تناسب طفلة .. طفلة في الثامنة لا أكثر .. ولكن .. هناك ثياب أكبر حجمًا .. ثياب تناسب فتاة مراهقة في الثالثة عشرة أو ما هو أقل من السادسة عشرة .. ثمة ثياب تدل على شابة في العشرين تقريبًا .. كلها ثياب لا تناسب (جلوريا) ولهذا أفهم لماذا لم تأخذها معها ..

ما معنى هذا ؟

انتصبت شعرتان أو ثلاث فى رأسى هى ما بقى كما تعلمون ..

الجواب الخافت الذى أعلن عن نفسه من قليل يصيح الآن بحرارة :

ألم تفهم بعد أيها الأحمق ؟ هذه المرأة (جلوريا) التى صارت زوجتك .. هذه المرأة التى فى العقد الثالث من عمرها .. هى ذاتها الطفلة (إليانور) !!!

* * *

7- المزيد من الاجتماعيات ..

نعم .. أعرف أن هذا التفسير أبله ..

أعرف أنه غريب ..

أعرف أنه يحتاج إلى الكثير من الصودا والمهضمات كمعقب ، كى يمكن هضمه ..

لكن هذا هو الحل الوحيد ، وإلا فـ (ماجى) كانت تستضيف فى هذه الغرفة كتيبة من الفتيات من أعمار متباينة ..

أما الشىء الغريب فهو أننى لم أشعر بخوف ولا نفور ولا دهشة ..

بدا لى الأمر منطقيًّا تمامًا ..

تذكرت الطفلة (إليانور) الرقيقة الخائفة تحتمى بـ (ماجى) وكيف أنقذناها من السحرة فقط لندرك أننا جئنا متأخرين .. هذه الطفلة بمعجزة ما قد صارت زوجتى !

إن الأيام تجرى .. لكن ليس بهذه السرعة !

لو كان كلامى دقيقًا فالطفلة قد نمت العشرين عامًا فى

شهر ونصف .. وهذه هى مشكلة أن تكون جربت كل شىء حتى لم تعد تندهش لشىء .. أنا مررت بتجربة مماثلة ، وكانت د. (كاميليا) تقول إنها كانت ترانى أكبر أمام عينيها ! لهذا أفهم أن يحدث شىء كهذا .. أفهمه ولا أصدقه ..

أنا تزوجت الطفلة (إليانور) التى صارت ـ بشكل ما ـ (رونيل) السوداء ..

★ ★ ★

فى الأيام التالية حملتْ (جلوريا) ورُزقت بطفل ..

لا أعرف كيف أفسر .. كل شىء هنا يتم بسرعة غير معقولة ، والغريب أننى لا أجد هذا غريبًا ..

رزقت به فى صباح يوم جميل من شهر (يونيو) ، وكان أقرب فى كل شىء إليها .. يقولون إن الطفل الأول يشبه أباه فى كل شىء لكن هذا الطفل كان نسخة منها .. ليس أصلع وليس نحيلاً .. وكنت أتخيل ابنى يشبهنى فى كل شىء .. ربما يحمل شاربى وعويناتى بينما يطل رأسه من (القماط) صارخًا ..

على كل حال حملت الصغير بين ذراعى ، وقد بدا لى رقيقًا لطيفًا .. إن هذه الأشياء التى تحدث لى هذه الأيام

بالذات لجديرة بكتيب لكل منها .. شم رائحتى فتقلصت كل ملامح وجهه الصغير ، ثم عطس عطسة لا بأس بها أبدًا .. إنه محبب كهرة صغيرة .. على الأقل هو لم يمت هلعًا حين رآنى ..

فقط أدعو الله ألا ترضعه حليبًا ممزوجًا بالشيكولاته .. هذا الحليب الذى جعلنى لا أعرف من أنا من زمن ..

سألتنى وهى منهكة شاحبة كما تجيد الأمهات أن يبدين :

ـ « ماذا ستطلق عليه ؟ »

لا أعرف .. لم أجرب خبرة إطلاق اسم على طفل رضيع من قبل .. إن اسم (كمال) لا بأس به لكن (كمال رفعت) اسم دبلوماسى مصرى مرموق ، وأنا أكره أن أسىء له بأن استخدم الاسم ذاته مع ابنى .. المشكلة مع اسم (رفعت) إن الخيارات الموسيقية محدودة جدًا و...

ـ « (سمير) طبعًا .. لا أعرف اسمًا آخر .. أنا لم اختره لكنه اختارنى .. »

ـ « هل له معنى فى العربية ؟ »

ـ « صديق .. صاحب .. ونيس .. شىء من هذا القبيل .. »

وبرفق وضعته جوارها محاذرًا من أن ينخلع عنقه الصغير ويتدحرج على الأرض ..

قالت باسمة وهى تربت على ذراعه :

ـ « سيكون رفيقك فى رحلتنا المزمعة .. ستكون بحاجة إليه .. »

ـ « رحلتنا المزمعة ؟ »

نظرت لى فى ثبات وقالت :

ـ « نعم .. أنا وأنت راحلان إلى (روشتوك) .. »

عرفت من طريقتها المصممة أننا فعلاً راحلان إلى (روشتوك) .. لا مفر من هذا .. ولكن ...

ـ « ما هى (روشتوك) هذه ؟ »

ـ « ألمانيا الشرقية .. قرب ساحل (البلطيق) .. حسبتك تعرف أوروبا جيدًا .. »

ما موضوع ألمانيا هنا ؟ أسمع عنها أكثر من اللازم هذه الأيام ..

ـ « هذا جميل .. ولكن ما هو المبرر القوى كى .. ؟ »

من جديد قالت فى ثبات :

ـ « أنت لا تسأل أسئلة .. فقط تمتثل .. »

حقًا كنت أعرف أنها قوية جدًا .. لا أعرف السبب لكنى لم أكن أشعر بشىء مريب أو مقلق فى هذا .. والحقيقة أننى منذ قابلتها لأول مرة أتحرك بالضبط فى المسار الذى تحدده لى .. لقد تزوجتنى ولم أتزوجها .. هى تريد أن تأخذنى إلى ألمانيا الشرقية ، وأنا لا أرغب فى الذهاب هناك .. لكنى سأفعل ..

وهكذا ابتسمت لها فى غباء وغادرت الحجرة ..

* * *

كانت فى غرفتنا ، وكنت أجوب الردهة مفكّرًا فى عمق ..

هنا خطر لى خاطر .. ماذا حدث لحجرة (ماجى) ؟ من الغريب أننى جبت كل أرجاء القصر ، لكنى لم أدخل حجرتها بعد .. لقد دخلتها عدة مرات فى زيارات سابقة لكنى لم أرها هذه المرة ، ولعل الأحداث المتلاحقة التى انهالت على منذ جئت هنا ، جعلتنى عاجزًا عن إيجاد الوقت الملائم ..

كانت غرفتها موصدة ، ولم أجسر على أن أطلب مفتاحها من (جراهام) .. لا أحب الأسئلة ..

فكرت فى مكتبها .. قد كان هو مكتب أبيها قبل وفاته ، وهو يحمل قدرًا لا بأس به من رائحتها .. اتجهت إلى هناك ودعوت الله ألا يكون موصدًا .. بالفعل أجيب دعائى ، وأدرت المقبض لأجد نفسى فى ذلك العالم الخاص .. الكمبيوتر على المكتب .. وفى ذلك العصر كان الكمبيوتر شيئًا ديناصورًا لا يملكه إلا الأثرياء ولا يتعامل معه إلا العباقرة .. وكانت سعة أفضل الأجهزة لا تتجاوز 64K .. باختصار كان الكمبيوتر المنزلى وهمًا من أوهام الخيال العلمى .. أوراق مكومة من أطروحة ما .. آلة حاسبة .. أجهزة فيزيائية لا أعرفها وأشك فى أن الخواجة (نيوتن) يعرف ما هى ..

جوار الأوراق كان هناك قدح جف ما به ، لكنى لا أشك فى أنه (الكابوتشينو) .. عصارة الأفكار كما تقول (ماجى) ، حتى أننى صرت أنظر إلى هذا المشروب الكريه نظرة احترام ..

وجوار الأوراق - أيضًا - كان إطار صورة صغير يقف شامخًا .. فى هذا الإطار كان وجه أعرفه .. صحيح أنه أجمل وأغزر شعرًا لكنه وجهى ..

ولم أتمالك دمعة سالت على خدى ..

أين أنت ؟ ماذا حل بك ؟

الغريب أنها لم تقل لى قط إنها تضع صورة لى على مكتبها .. بالأحرى كانت تنكر ذلك بعنف كأنما أهينت ...

جلست إلى المكتب ورحت أقلب الأوراق .. هنا لمست يدى شيئًا له ملمس مألوف .. هذه الأوراق ..

كانت هذه هى الأوراق التى وجدتها جوار جثة (لورين بلاك) والتى عرفت منها موضوع (إليانور) .. إننى لم أقرأها بعناية ، وحين رحلت تركتها لـ (ماجى) .. فهل مازال فيها ما يهم ؟

من الجلى أن (ماجى) كانت تدرسها بعناية .. هناك قاموس صغير للغة لا أعرف ما هى (هل الجرمانية القديمة ؟) وضع على المكتب وقد أغلق على قلم رصاص .. (ماجى) بذلت جهدًا كبيرًا فى فهم بعض المخطوطات الجرمانية .. هذا واضح ..

دسست هذه الأوراق فى جيبى وواصلت البحث .. أراهن على أن هناك الكثير مما يهمنى على هذا الكمبيوتر ، لكنى لا أعرف كيف أفتحه ولا كيف أبحث عن شىء فيه .. لو كانت (ماجى) تركت لى رسالة عليه فهى حمقاء ..

وهكذا حملت غنيمتى واتجهت إلى الحديقة ..

كان هناك مقعد جوار نافورة صغيرة ، وهى ليست نافورة بالضبط بل هى أقرب إلى إناء شرب للطيور .. من هنا يمكن الحصول على سنونو أو عصفور دورى .. لابد أن هذا هو المكان ..

نظرت حولى فلم أر متلصصين .. فتحت الأوراق وبدأت أقرأ ..

من البداية ...

* * *

بعد ساعة من التركيز بدأت أكون رأيًا ..

هذه الأوراق تحوى مجموعة من الكلام الفارغ .. نقاط تنوى الكاتبة الفقيدة أن تفيد منها فيما بعد .. هناك ملحقات باللغة التى لا أعرفها يبدو أنها من وثائق أصلية وقد نسخت نسخًا باليد .. رسمتها الكاتبة كما ترسم أنت نقوشًا هيروغليفية لا تفهم ما هى .. لا أفهم هذا الجزء على كل حال .. فقط كانت الفقرات المهمة هى التى قرأتها على (ماجى) فى المرة الأولى ..

لكن الفقرة التالية هى الجديرة بكل هذا العناء :

ـ « كانت مشكلتى هى معرفة من أين بدأت (رونيل) .. أين تعلمت السحر ومتى صارت شريرة ؟ تتبع (رونيل) نفس الخيط الذى يقود إلى ساحرات أخريات ظهرن فى أوروبا فى تلك الحقبة .. لاحظت أن الساحرات اللاتى يعدمن يواصلن الحياة بشكل آخر فى أجساد أطفال .. وهؤلاء الأطفال ينمون ويصيرون سحرة بدورهم .. والخيط يبدأ أو ينتهى عند جزر البلطيق .. هل هذه هى بلاد القوط الشرقيين ؟ على الأرجح الإجابة هى نعم .. إن الأسطورة قوية جدًا ، وقد سمعتها بأكثر من توزيع ، لكنها جميعًا تتحدث عن الشىء ذاته .. لقد انتقل السحر إلى (رونيل) من واحدة أخرى أعدمت فى زمن سابق .. وهذه الأخرى أخذت العدوى من أخرى .. كأننا نتحدث عن مرض الكلب هنا (بكسر اللام لقراء العربية طبعًا) ..

« هناك فى إحدى الجزر ببلاد القوط الشرقية يقع ذلك الكهف .. كهف يمتد لمسافة طويلة داخل أعماق الجزيرة ، وهذا الكهف يعيش به مكبلاً سجينًا ساحر قديم يدعى (جيلبرت) .. »

(جيلبرت) .. الاسم (جيلبرت) ...

* * *

« أنا (جلوريا جيلبرت) .. حدثتنى (ماجى) كثيرًا عنك .. »

« نحن منفصلان .. وآخر ما سمعته عنه أنه فى ألمانيا .. وأنه سجين .. »

★ ★ ★

« هناك سجنه أستاذه (كاتيوم) منذ قرون لا حصر لها ، لأنه تجرأ عليه وسبه .. وقد قيده إلى عوارض خشبية عليها نقوش قوطية قديمة .. تقول الأسطورة إن هذا الساحر سيظل هناك حتى يجده ساحر آخر ويحرره ..(*)

« .. هناك فى ألمانيا الشرقية سمعت الناس والفلاحين يقولون إن (جيلبرت) يبحث عن ساحر يحرره ..

« إذن فهذه القصة تبدأ بـ (جيلبرت) .. ومنه يبدأ الخيط عبر عدة أجيال آخرها ـ بالنسبة لى ـ (رونيل) السوداء ..

« فهل كانت (رونيل) تتأهب للذهاب إلى (البلطيق) لتحرر هذا الساحر لكن الناس أعدموها قبل ذلك ؟ فى هذه الحالة هى لم تتم عملها وسوف تعود .. لكن فى صورة من ؟ »

(*) أسطورة حقيقية ..

ـ « فى صورة (إليانور) يا عزيزتى .. فى صورة (إليانور) التى كبرت فى شهر أو أكثر .. وادعت فيما بعد أن اسمها (جلوريا) .. »

قلتها بصوت مسموع مخاطبًا روح الكاتبة الشابة التى حاولت تقمص أفكار وشخصية الساحرة ..

ودسست الأوراق فى جيبى واختلست نظرة إلى الشرفة البعيدة ...

زوجتى الحبيبة تقف هناك والطفل على كتفها .. من الواضح أنها تراقبنى ..

لا أعتقد أنها تقرأ ما فى يدى من مسافة عشرين مترًا ، لكنى لا أستبعد شيئًا بالنسبة لها .. وما فى ذلك ؟ هى تعرف أننى عاجز عن الفرار .. عاجز عن اتخاذ قرار .. ما أن أراها حتى أتحول إلى الأبله المنبهر بجمالها ، والأب الطيب لطفلها ..

يمكن القول إننى الآن أعرف ما سيحدث ..

وإن كنت عاجزًا عن منعه ..

ستذهب إلى ألمانيا ولسوف تحاول أن تحرر هذا الـ (جيلبرت) لو كانت الأسطورة صحيحة ..

هنا يبرز سؤال مهم : ما دورى فى هذا كله ؟ كان بوسعها عمل ذلك دون أن تتزوجنى أو تنجب منى ..

فلماذا أنا دون غيرى .. لماذا ؟

لو كانت تريد زوجًا ـ أى زوج ـ فهناك ألف واحد يصلح ، وحتى (جراهام) رئيس الخدم يصلح وهو أجمل منى بكثير ..

السؤال الثانى : هل (ماجى) فى ألمانيا فعلاً ؟ ماذا تفعل هناك وحدها ؟ ولماذا تركت الطفلة هنا ؟ هل كانت الطفلة قد بدأت فى النمو بذلك الشكل المفزع الغريب ؟

السؤال الثالث : ماذا ينتظرنى هناك ؟

وخطر لي أنه لابد من إعادة هذه الأوراق لمكتب (ماجى) حالاً ...

* * *



8 ـ دى إنزيل ..

قال لى (سمير) وهو يمسك يدى بيده الصغيرة :

ـ « لماذا نحن ذاهبون إلى ألمانيا يا أبى ؟ »

لم أدر ما أقول .. طبعًا يصعب عليه أن يفهم قصة (جيلبرت) والكهف ..

صحيح أنه ينمو بسرعة لا تصدق .. صحيح أنه الآن فى السابعة من عمره حسب نموه العقلى والنفسى والبدنى ، لكن عمره شهر حسب تاريخ المولد ، إلا أن هذه الأشياء تظل بعيدة عن فهمه ..

يجب أن أقول هنا إنه كان يتكلم العربية والإنجليزية معًا .. هكذا يتفاهم مع أبيه وأمه ..

قلت له وأنا ألثم جبهته :

ـ « ذاهبون إلى ألمانيا لأننا لانعرف مكانًا آخر نذهب إليه .. »

حقًا يجب أن تظل هذه القصة سرًا لو خرجت منها سالمًا .. أنا تزوجت (إليانور) الطفلة التى لم تعد طفلة ، وأنجبت منها خلال شهر ، طفلاً هو الآن فى السابعة من عمره بعد شهر آخر ..

هل هذا القصر يتميز بظاهرة تعجيل الزمن ؟ أنا لم أفهم النسبية قط لكنى أعتقد أنها تتحدث عن أشياء كهذه .. ولكن بالعلم هذه المرة ..

إن الفارق بين الرعب القوطى ورعب الخيال العلمى هو أن المسوخ والخوارق يفزعوننا فى النوع الأول بينما الآلة هى التى تفزعنا فى الثانى .. يقولون إن الكتاب لم يجدوا مشكلة عندما ولد أدب الخيال العلمى .. حل العالم المجنون محل الساحر .. وحل الاختراع العجيب محل الشبح .. لكن الحبكة ظلت هى هى ..

لو كانت النسبية تفسر ما أنا فيه فقد حان وقت دراستها جيدًا .. وإننى لأحسد (ماجى) لأنها تفهمها ..

* * *

تقع (روشتوك) - التى شُيِّدَت فى القرن الثانى عشر - شمالى شرق (ألمانيا) الشرقية .. لم تكن ألمانيا موحدة وقتها طبعًا ، وكانت تعانى من ذلك الصدع القديم يوم دخل السوفييت (برلين) من الشرق ودخل الأمريكان (برلين) من الغرب ، وانتحر (هتلر) .. من يومها ظلت ألمانيا مقسمة .. الشرق ينتمى إلى عالم الشيوعية والحزب والبروليتاريا ،

والغرب ينتمى إلى عالم الهامبرجر وديزنى لاند وشعار (العالم الحر) .. الشرق يعد بجنة على الأرض يوم تعم الحتمية التاريخية وتثور البروليتاريا فى كل العالم ، والآخر لا يعد لكنه يقدم بالفعل جنة أرضية صناعية قوامها الكولا والهامبرجر وأفلام (هوليوود) المبهرة ..

خلف الستار الحديدى كما يقول (تشرشل Churchil) .. هكذا عبرنا إلى عالم آخر بمقاييس أخرى ..

تقع المدينة على نهر (فارنوف) .. قرب بحر (البلطيق) .. وهى مركز بحرى حساس وميناء بالغ الأهمية .. وفيها أقدم جامعة فى شمال أوروبا ..

ويمكنك بسهولة أن ترى آثار القذف أثناء الحرب العالمية الثانية .. بعض هذه الآثار لا ينوون التخلص منها لأنها نوع من التاريخ الحى الناطق ..

كانت (جلوريا) - أم هى (إليانور) أم (رونيل) ؟ - معى .. ويجب أن أقول إنها كانت هى (رجل البيت) .. كانت المسئولة عن الإنفاق والتنقل وحجز القطار والفندق .. وكانت تتحرك كأنما مارست نفس الرحلة ألف مرة ..

وفى ذات يوم الوصول اتجهت إلى المرفأ وبحثت عن يخت صغير للإيجار ..

سألها البحار بالألمانية عن شيء ما ، ثم راح يهرش رأسه في حيرة .. لم يبد على استعداد لتصديق ما تقول ..

سألتها حين عادت عما طلبته ومنذ متى تجيد الألمانية .. فقالت باسمة :

ـ « أنا أجيد أشياء كثيرة .. أما ما طلبته فهو يخت نبحر به في بحر البلطيق Baltic .. إن الجزيرة التي أبحث عنها غير مرسومة على الخارطة لكنهم يعرفونها ويكرهونها .. ويطلقون عليها هذا الاسم المحايد (الجزيرة) .. Die Insel .. »

سألتها متظاهرًا بالبراءة :

ـ « يكرهونها ؟ لماذا ؟ »

قالت متظاهرة بالبراءة هي الأخرى :

ـ « وكيف لي أن أعرف ؟ إن البحارة قوم شديدو التطير .. لو غرقت سفينتان قرب هذه الجزيرة لاعتبروها مشئومة .. ثم يتناقلون هذه القصة حول النار ليلاً وهم يدخنون غلايينهم .. بعد قرنين تصير حقيقة لا يناقشها أحد .. »

ثم قالت بلهجة عملية براجماتية :

ـ « الليلة نتحرك إلى هناك ! »

صحت في جزع :

ـ « ومن قال إنني أجيد الملاحة ؟ »

ـ « أنت لا تجيد أي شيء .. لكن كما قلت لك أنا أعرف الكثير من الأشياء .. »

ومشينا في المدينة .. مررنا بجامعتها العتيقة التي تعود إلى عام 1419 .. وكانت هناك مجموعة من الكنائس قوطية الطابع .. طبعًا .. أنت هنا في بلاد القوط ذاتها ..

لكن ما كانت تبحث عنه هو كنيسة (سانت ماري) .. كانت هناك في ساحتها ساعة غريبة الشكل هي أقرب إلى مزولة .. نظرت لها وقالت ضاحكة :

ـ « هذه ساعة فلكية تعمل بدقة تامة من عام 1472 حتى اليوم .. ولم تتوقف لحظة .. »

أصابتني الدهشة ، وإن دهشت أكثر لاهتمامها البالغ بالآثار .. لكنها قالت وقد رأت حيرتي :

ـ « ما أقوم به لا يعتمد على توقيت محلي .. إنني أعتمد على التوقيت الفلكي ذاته .. وهذه الساعة تخبرني بأن على الرحيل هذه الليلة .. سيتم (الأمر) الليلة .. »

ساد صمت طويل ثم سألتها :

ـ « هل أنت مندهشة لأننى لا أسألك عن شىء ؟ »

ـ « بل سأندهش لو فعلت .. »

وانطلقت تجد السير مبتعدة عنى بقامتها الرشيقة الفارعة ، وهتفت دون أن تنظر لى :

ـ « سنحتاج إلى ثياب تقينا برد البحر وبلله .. »

ـ « وطعام ؟ »

ـ « لا طعام !! هيه هيه ! صدقنى لن تحتاج إلى طعام ! »

★ ★ ★

يطلقون عليها (الجزيرة) .. تحاشيًا للمزيد من التفاصيل ..

لقد جاء الليل ..

ومعه تحركت (رونيل) السوداء ..

لن أناديها بعد اليوم باسم (جلوريا) .. لن أناديها بـ (إلياتور) .. إنها هى (رونيل) السوداء ذاتها ..

تقف خلف الدفة كأنها الشيطان يرتاد نهاية العالم .. ترتدى سترة واقية من البلل وعيناها الزرقاوان الوحشيتان تلمعان فى ضوء لا أعرف من أين يأتى ..

تقاوم بحر البلطيق ذاته .. تقف شامخة على الدفة .. بينما الرذاذ يتطاير ليغرق شعرها .. فتزيحه لتسلط عينًا واحدة على البحر من جديد ...

إنها تتكلم باللاتينية .. ماذا تقول ؟ لا أعرف .. تضحك أحيانًا ثم تصمت .. أرجو أن تكون ساحرة حقًا وليست مجرد مجنونة وإلا فنحن ضائعون لا محالة .. لا يستطيع مقاومة هذه العاصفة إلا بحار محنك أو ساحرة ..

وأرتجف .. أمسك بيد (سمير) حيث جلسنا فى موضع آمن من اليخت .. وقد دفنا رءوسنا فى ستراتنا الثقيلة الواقية من البلل ..

ما هذا الذى مضينا إليه ؟ ما هذا الذى سنلقاه ؟

يقول (سمير) راجفًا :

ـ « أبى .. إن أمى عصبية جدًا .. أنا خائف ! »

فأوشك على أن أقول له إن الحال واحد ، ثم أصمت ..

بحر البلطيق الرهيب .. الذى يقع بين (ألمانيا) و(فنلندا) و(الدنمارك) و(السويد) و(أستونيا) و(بولندا) .. بحر العواصف الذى لا يرفق بالسفن أبدًا .. متوحش مثل .. مثل (رونيل) السوداء ..

إنه ليس ببعيد عن بحر الشمال الأسطورى .. فقط تربطه به فتاة (القيصر فلهلم) ..

كنت أفكر فى هذا وأتحسس ذلك القضيب الحديدى الملقى على السطح الزلق بقربى ..

فقط بعض الشجاعة .. بعض الحسم .. ضربة واحدة وينتهى الكابوس .. سيجن الطفل هلعًا لكنه لا يعرف أننى أنقذه .. أنقذ العالم كله فى الواقع ..

أمد يدى وأعتصر القضيب أكثر ..

أنهض مترنحًا .. فيقول شيئًا لكنى أشير له كى يخرس ..

أتقدم إلى الأمام .. وفجأة ...

(بحر العواصف الذى لا يرفق بالسفن أبدًا ..)

موجة كاسحة تنهض من سباتها كالديناصور .. تزحف تحت اليخت فأجد أننا نرتفع إلى عنان السماء ثم نهوى .. وأسقط على الأرض .. يسقط القضيب من يدى .. أتشبث فى آخر لحظة بعارضة معدنية ، وأنكمش على نفسى حتى تستقر السفينة ..

ـ « إن البحر فى صفى يا (رفعت) فلا تتجاهله ! »

قالتها وانفجرت فى الضحك ..

كيف عرفت ؟ إنها لم تنظر للوراء لحظة ..

إنها تعرف الكثير من الأشياء حقًا ..

الخلاصة إنها ليلة سوداء ....

* * *

يطلقون عليها (الجزيرة) .. لأنهم يتطيرون من اختيار اسم لها ..

وقد كنا الآن نراها من الشاطئ .. نقف خارج حزام الصخور المحيط بها ..

يبدو أنها صغيرة جدًا .. وإن بدت لى شريرة بما يكفى .. إن هذا المكان يحوى طاقة نفسية مرعبة .. أعرف هذا .. أشعر به ..

كانت (رونيل) ـ أو المدام ـ تحمل حقيبة ثقيلة على كتفها .. وراحت بعدما ترجلت تشق طريقها بثقة وقد بلغ الماء خصرها .. لم أدر ما أفعله فوضعت الصغير على ظهرى ، كأنه يركب حصانًا .. كل ساق على كتف ورحت أشق طريقى فى الماء خلفها .. إن الظلام يجعل الأمر

كابوسًا .. هناك قمر خلف الغيوم لكنه لا يعمل جيّدًا .. مزاجه متعكر بعض الشىء ، وقد أرغم على السهر بانتظارنا ..

أخيرًا وقفت على الشط وراحت تتشمم الهواء فى استمتاع ، وقالت :

ـ « استعددت لهذه الرحلة طيلة حياتى .. »

ـ « هذه الحياة فقط ؟ »

ابتسمت فى خبث وتقدمت الطريق .. كانت تعرف وجهتها وكانت مصممة على الوصول إليها ..

نظرت للشاطئ الرهيب خلفنا .. هل أنا أحلم أم أن هذا شبح قارب يقف وحيدًا مظلمًا فارغًا بين الأمواج ؟

من يدرى ؟ لربما غرقت سفن أكثر من اللازم قرب هذه الجزيرة الملعونة ..

هناك ذلك الكهف .. إننى أراه بوضوح ..

إنه خبيث الشكل ككل شىء على تلك الجزيرة ..

دون تردد دلفت (رونيل) من المدخل ، فتبعتها وأنا

أمسك بيدى الصغير .. كانت تعرف طريقها فى الظلام ، أما أنا فاضطررت إلى التوقف حتى لا أحطم عنقى .. سمعتها تغمغم بشىء ما .. ثم ... منذ متى كانت تحمل مصباحًا ؟ لم أرها تحمل مصباحًا ، لكنى أرى بقعة من النور أمامها .. وها هى ذى تتقدم الطريق فنتبعها وظلالنا ترسم رسومًا سريالية مفزعة على الجدران .. تمزق خيوط العنكبوت وهى تمشى .. وتفزع الوطاويط التى تحلق لمكان آخر ..

صحت فيها والصدى يولول بدوره :

ـ « سأترك الطفل فى الخارج ! »

ودوى الصدى مرارًا : رج .. رج .. رج ... كان الإغريق يعتقدون أن الصدى هو الفتاة (إيكو Echo) التى لعنتها (هيرا) وجعلتها تردد آخر مقطع من كل جملة تقال أمامها .. يبدو أن الأخت (إيكو) كانت تنتظرنا من زمن ..

صاحت بدورها بينما بقعة النور تواصل التقدم :

ـ « خطر جدًا .. إنه أكثر أمنًا هنا .. »

نا .. نا .. نا .. نا !

أعرف أننا نهبط باستمرار .. أعرف أننا الآن تحت

مستوى البحر ذاته .. والكهف ممتد .. الهوابط من أعلى تقطر ماء ، والطحلب يغطيها ..

أخيرًا هناك تلك البوابة الخشبية العملاقة ذات الخشب الذى أعجب لكونه لم يتلاش حتى اللحظة .. إن الصناعة القوطية بارعة حقًا ..

على الباب شعار عملاق .. وكل الشعارات على ما يبدو تحوى التنين والنسر .. وهناك كتابة بلغة عجيبة لا أعرف حروفها .. لا .. ليست اليونانية ولا اللاتينية .. هى أقرب إلى مجموعة من نقوش ..

لكنها تقف هناك .. تسلط ضوءها الذى لا أعرف مصدره على الحروف ، وبصوت جهورى تهتف :

ـ « داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت !! »

هنا فقط بدأ الدخان يتصاعد .. يخرج من تحت الباب ومن فجواته .. يخرج من كل شق فيه .. دخان كثيف أزرق له رائحة الكبريت ..

وشعرت بشعبى الهوائية تتقلص ورحت أسعل ، أما (سمير) فلك أن تتصور حالته .. رباه .. لا تبك .. أرجوك لا تبك .. فهذا يقضى على أعصابى تمامًا ..

قلت لها فى حزم :

ـ « لا أعرف ما تنوين عمله .. ولا حيلة لى فى الخلاص منك .. لكن تذكرى أن هذا ابنك ! »

نظرت لى بجانب وجهها .. وضع ثلاثة أرباع خلفى كما يقول المصورون ، وهتفت من جديد :

ـ « داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت !! »

الصدى يقول : برت .. برت .. برت !!

الباب ينفتح ببطء .. ينفتح ...

* * *

9 ـ السجين يتحرر ..

لم نر ما يوجد بالداخل لأنها شقت الطريق وحدها ..

ووقفت مع (سمير) وحدنا بالخارج عاجزين عن الفرار .. عاجزين عن اللحاق بها ..

الدخان يزداد كثافة .. الرائحة خانقة فعلاً .. أوشك على الموت بالربو حالاً ..

متى تلقيت الضربة على رأسى ؟ لا أذكر .. لكنها جاءت فى وقت لم أكن أرى فيه شيئًا على الإطلاق .. وساد الظلام كما هى العادة ..

شعور السقوط الأبدى إلى أسفل ..

إلى أسفل ..

إلى أسفل ..

إلى أسفل ..

★ ★ ★

يطلقون عليها (الجزيرة) .. لأنهم يتطيرون من اختيار اسم لها ..

والآن حين فتحت عينى أدركت أننا لم نكن وحدنا على الإطلاق ..

كم كان عدد الرجال ؟ عشرة ؟ ربما .. لكننى لم أتبين وجه واحد منهم .. وتذكرت كيف كان يبدو الوباء ذو الكلمات السبع .. إن هذه الكائنات الظلامية تعرف كيف لا تبدو فى النور أبدًا .. لا بد من أن ينسدل غطاء الرأس بحيث لا ترى إلا لمحة من وجوهها فى كل مرة .. وهذه اللمحة لا تكفى إلا لإثارة الذعر ..

هل جاء هؤلاء القوم فى سفينة أخرى ؟ تلك التى وجدتها قرب الشاطئ ؟

الحقيقة الأهم هى أننى مقيد فى وضع النسر المحلق .. مقيد بالسلاسل إلى منضدة خشبية عتيقة .. هذا هو وضع التضحية الوثنية الشهير ، ولن أندهش لو كان باقى البرنامج يتضمن شق حنجرتى من أجل .. من أجل من ؟

ونظرت جوارى فرأيت فى ضوء المشاعل أن (سمير) راقد فى وضع مماثل ..

منذ فترة قصيرة كانت الطفلة (إليانور) تمر بالتجربة مثلنا .. لكنها لم تكن فى خطر على حياتها .. كانت فى خطر

على مستقبلها .. لم تعد طفلة عادية بل صارت ساحرة .. فهل مستقبل مماثل ينتظرنا ؟

تبًا .. ينسى هؤلاء القوم إننى لا أطيق النوم على ظهرى .. إن عسر التنفس يداهمنى على الفور .. أو كما يقولون (تضيق روحى) .. لو كانوا يريدون التضحية بى فليفعلوا ذلك وأنا نائم على جانبى الأيمن ..

أخيرًا زوجتى الحبيبة تظهر من مكان ما وسط هذا الكهف المقبض ..

ما زالت جميلة وإن ارتدت كل ما يلزم للمسرحية القادمة .. بدا لى كأنما عدنا بآلة الزمن إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر .. وكان شعرها مغطى بخيوط العنكبوت فبدا متناغمًا مع ثيابها ..

قلت لها وأنا أجاهد كى أرفع رأسى :

ـ « سأكون شاكرًا لو شرحت لى ما يحدث .. »

قالت وهى تحرك ذراعيها كأنها رقصة هندية ما :

ـ « إن خلاص (جيلبرت) من (كاتيوم) عسير .. والدليل هو كل السحرة الذين فشلوا عبر القرون فى تحريره ..

ودعنى أقل لك أيها العزيز إن تحرره يعنى نهاية التاريخ كما تعرفه .. »

ـ « أعرف هذا .. لكن ما دورى أنا ؟ »

ـ « الطقس الأول هو البنوّة .. يجب أن يضحى الساحر بابنه .. »

ارتجفت لهول الفكرة .. هى لم تنجب إذن إلا ليكون لديها من تضحى به ..

ـ « الطقس الثانى : الدمَان .. يجب أن يسيل على قيود (جيلبرت) دم أب وابنه .. »

بدأت أفهم .. هى إذن ستضحى بى كذلك .. كانت بحاجة لأب وابن .. على أن يكون الابن ابنها كذلك .. هكذا تضرب عصفورين بحجر .. ولكن لماذا أنا بالذات ؟ لماذا لم تتزوج (جراهام) الخادم أو بائع الصحف أو أى أحمق سواى ؟

الانتقام !

نعم .. الانتقام .. هذا معقول .. أنا من كشف أن الطفلة هى ذاتها (رونيل) وكاد يفسد الكثير من الأشياء فى أيرلندا .. ربما لهذا نمت بهذه السرعة الجهنمية .. ربما

لهذا تم اختيارى لهذا الفخ .. فقد كانت تعرف أننى قادم إلى (إنفرنسشاير) ..

ـ « الطقس الثالث هو المحرقة ! »

هذا الجزء لايروق لى .. هل تنوى حرقنا بعد قتلنا أم العكس ؟

المهم أنها راحت تدور فى المكان وهى تؤدى مشهدًا طويلاً معقدًا من مسرحية لا وجود لها .. لو كانت هناك نسخة من (هاملت) باللغة القوطية القديمة فلا شك أنها تؤديه الآن ..

وفطنت إلى أنها تتلو ما تقرؤه من أوراق .. هناك نوع من التلقين إذن .. ليست بهذه الذاكرة الحديدية ..

هذه الأوراق أعرفها .. حتى من مكانى هذا وفى هذه الإضاءة الخافتة المتوهجة بالمشاعل .. هذه الأوراق التى كانت مع الكاتبة والتى جاهدت (ماجى) كى تترجمها ..

الوقت يمر ..

الطفل يولول ..

الدخان يتصاعد ..

القراءة تستمر ..

ثم إنها صعدت إلى ما يشبه العمود المنصوب فى ركن الكهف .. وارتخى جسدها تمامًا بينما تقدم رجلان يقيدانها بسلاسل لا أعرف من أين جاءت ..

إنها تصيح فيهما بالإنجليزية هذه المرة :

ـ « حين أنتهى أنا .. قدموا التضحية ! »

ما معنى هذا ؟ تبًا ! لقد فهمت !

★ ★ ★

صرخت فى تلك المخبولة وأنا أحاول النهوض :

ـ « لا تفعلى يا حمقاء ! كل هذا وهم .. أنت لن ... »

لكن ضحكة الانتصار كانت تشيع على وجهها بينما الرجلان يشعلان النار فى كومة من الخشب عند قدميها .. إنها المحرقة كما قالت لى ! ستحرق نفسها من أجل (جيلبرت) كجزء من تلك الطقوس .. ربما لأنها تلقت وعدًا بأن تكون منه أو له .. لا أعرف .. لا أفهم هذا الهراء ..

ألسنة النار تتعالى .. لو لم أكن مخطئًا فقد مرت هذه المرأة بهذه التجربة الشنيعة عشرات المرات .. لقد صار الاحتراق هواية محببة لها ..

الآن يتقدم الرجال حاملين خناجرهم نحو الضحيتين المقيدتين .. أنا والطفل ..

عندما تلفظ هى آخر أنفاسها ستهوى النصال علينا ويمتزج الدمان .. ثمن غال جدًا كى يتحرر (جيلبرت) ..

صرخت بأعلى صوتى :

ـ « لا تفعلى يا حمقاء ! كل التعاويذ التى قلتها خطأ ! »

اتسعت عيناها فى شك من وراء الدخان المتصاعد ..

ـ « لقد قامت (ماجى) بتزييف تلك الأوراق .. ترجمتها ثم حذفت عبارات وبدلت أخرى .. عرفت هذا وأنا أفتش مكتبها !! إن ما قمت بتلاوته كلام فارغ !! »

صارت عيناها الآن بلون الدم .. وراحت تحاول التملص ..

لكن اللهب ارتفع أكثر ..

عندها نظرت إلى سقف الكهف وأطلقت عواء كعواء الذئب .. أقسم أننى رأيت وجهها الحقيقى وقتها ، ولم يكن يمت لوجهها الذى عرفته بصلة .. سوف يزور كوابيسى إلى الأبد ...

ـ « داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت !! »

ثم سكنت صرختها ...

لقد ماتت دونما ثمن ، والأسوأ أنها عرفت هذا فى اللحظة الأخيرة ..

وفى اللحظة التالية انقض الرجال ـ الذين لم يفهموا ما قلت ـ علينا بمديهم ..

وفى اللحظة التالية ارتج الباب الموارب فى طرف القاعة ..

رباه ! إن هذا صحيح ...

* * *

هوى الباب مرة واحدة .. لم أر شيئًا من الدخان ..

لكن .. بين الغمام ترى شيئًا من حين لآخر .. ترى الرجل المقيد العملاق .. ترى الأسمال التى يلبسها .. يمكنك أن تفهم أنه مقيد الذراعين بالسلاسل إلى عارضة خشبية فوق كتفيه ..

يمكنك ـ بشكل ما ـ أن تفهم أنه انتزع العارضة التى قيد إليها .. إنه يقتحم المكان كأنه (شمشون) يهدم المعبد فوق رءوس أعدائه ..

ثم يرتفع الدخان ثانية فلا ترى شيئًا ..

لكنك تسمع وربما ترى .. تسمع الرجال ـ أو المسوخ ـ إذ يجثون على ركبهم ويرددون شيئًا ما بتلك اللغة الغامضة ..

انتهى الأمر .. كانت مناورة وفشلت .. لقد كنت حمقاء يا (ماجى) ...

ـ « داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت !! »

ـ « داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت !! »

لا بد أن معناها (لقد لبينا النداء يا جيلبرت) أو (قد جئنا لنحررك يا جيلبرت) أو شىء من هذا الهراء ..

لكن الأمور لا تسير على ما يرام ..

إن هذا الشىء الذى كان حبيسًا من قرون يتحرك فى هياج .. يرفع رأسه لسقف الكهف ويعوى ..

يعوى لا كعواء (رونيل) ولكن كعواء الشياطين فى سقر ، أو ديناصور سقط فى بركة قطران فلم يبق إلا رأسه .. ترتج جدران الكهف .. تسقط الهوابط المدببة على جسدى ومن حوله ..

(هل ابنى سليم ؟)

يرتطم بالجدران الصخرية .. جحيم من الدخان والغبار .. ثمة زلزال أم هو وقع قدميه الثقيلتين ؟

يتلوى .. يصرخ .. يعوى ..

يعوى .. يصرخ .. يتلوى ...

ثم يتقهقر إلى الوراء .. نحو الباب المفتوح ..

وغاب وسط الدخان الأزرق الكثيف من حيث جاء ..

وفى ثانية لم يعد الرجال من حولنا .. عشرات الفئران تجرى فارة من الكهف ..

بعضها يتسلق الجدران ، وبعضها يزحف فوق ساقى .. وبعضها يسقط من أعلى ..

ثم ساد الصمت الرهيب ...

* * *



10ـ خاتمة ..

كم من الوقت فقدت رشدى ؟

لا أحد يستطيع الحكم على هذه الأشياء ..

فقط فتحت عينى لأرى ظلام الكهف من حولى .. لقد ماتت المشاعل جميعًا ...

ظلام دامس يجثم على روحى .. وصمت مطبق رهيب ..

ـ « (سمير) .. هل أنت بخير ؟ »

لا رد ..

ـ « (سمير) .. هل أنت بخير ؟ »

لا رد ..

كنت أعرف الإجابة .. هذه الهوابط المدببة التى سقطت من أعلى لعبت دور ألف مدية تسقط فوقك فى آن واحد .. أنا نجوت ببساطة لأننى أنجو دائمًا من هذه الأشياء .. لطالما تصورت نفسى وقد كونت أسرة أقود سيارتى على الطريق السريع .. ينفجر الإطار الأمامى .. تنقلب فى الترعة .. عندها من ينجو ؟ من يخرج من الماء بلا خدش ؟ إنه أنا طبعًا ..

بينما لا يبقى أحد حيًّا من أعزائى .. كان هذا الكابوس يؤرقنى .. مشكلتى أننى أظل حيًّا بعد من أحب ..

فقدتِ (سمير) ولا أدرى من أفقد بعد هذا ..

ورحت أنشج بصوت عال فى الظلام ..

أنشج وأنا مازلت فى وضع النسر المحلق .. لا سبيل للخلاص لأن هؤلاء القوم يستعملون السلاسل ...

سأكون أسطورة أخرى يتناقلها البحارة وهم يدخنون غلايينهم ليلاً حول النار .. العجوز الذى يبكى ليلاً فى كهف فى (الجزيرة) .. لقد سمعه كثيرون .. وصوت بكائه يجمد الدم فى العروق .. لا تقربوا الجزيرة ففيها ساحر حبيس وعجوز يبكى وساحرة متفحمة .. و...

من أين يأتى هذا الضوء ؟

هذا كشاف وأقسم على هذا ..

صوت أنثى .. أنثى .. و...

إننى أعرفه .. وأعرفها ...

(ماجى) !!

* * *

كانت تحاول فك السلاسل فى هستيريا وهى تنشج وتردد :

ـ « يا صغيرى .. ماذا فعلوا بك ؟ ماذا فعلوا بك ؟ »

قلت لها وأنا متأكد من أنها غير موجودة .. هذه هلاوس ما قبل الموت :

ـ « لم يفعلوا .. كانوا سيحققون نجاحًا عظيمًا .. لولا ... »

ثم نظرت ليديها فلم أجد كشافًا .. من أين يأتى الضوء إذن ؟

(أين ذهب سمير .. لقد كان على بعد متر منى ؟)

هنا سمعت صوتًا غليظًا وقحًا يقول فى الظلام :

ـ « إنها سلاسل قذرة .. هؤلاء الأوغاد كانوا يجيدون صنع الصلب .. لكنى سأجد حلاً .. »

هذه اللهجة الأسكتلندية القحة والطريقة المقتحمة الفظة ..

ورأيت على ضوء الكشاف الذى يحمله وجه (إيوان فريزر) .. الصياد الفظ الذى اشترك معى فى محاولة اصطياد (لوخ نس) .. والذى كاد يسلبنى (ماجى) ..

قلت له باسمًا :

ـ « لو كان وجهك هو آخر وجه أراه فى هلاوس الموت ، فأنا فى ورطة ! »

قال وهو يلوك لفافة تبغ :

ـ « لست خيرًا إلى هذا الحد أيها الصبى العجوز .. فقط الأخيار يموتون بسهولة .. أنت حى وإن كنت أشك فى ذلك من مظهرك .. »

ثم نظر إلى أعلى وسأل (ماجى) :

ـ « هذه الأشياء القذرة المتدلية من أعلى .. هل هناك المزيد منها ؟؟ لا أريد أن تمزق أحشاءه الآن .. »

ـ « لقد سقط أكثرها .. »

ـ « إذن .. أفضل الحلول هو أعنفها ! »

دوّت طلقتان فى فراغ الكهف .. حتى شعرت كأنما أطلقهما على أذنى .. الصفير يتردد بإلحاح مريع .. وتساقط المزيد من الغبار من السقف ..

لكن يدىّ تحررتا وإن ظل السوار متمسكًا بكل معصم ..

قلت له فى غيظ :

ـ « كان بوسعك أن تنذرنى أيها الحيوان أنك ستطلق الرصاص .. ومن هذه المسافة ؟! »

هنا دوت طلقتان أخريان ! لقد نسيت إن قدمى مربوطتان بدورهما !

نهضت مترنحًا والغبار يتساقط من جسدى .. ورفعت رأسى لأجد أننى أحدق فى أبشع وجه صارخ رأيته فى حياتى .. جثة محترقة مربوطة بالسلاسل ولم يبق منها شىء تقريبًا ..

قلت بصوت كالفحيح وأنا أتراجع للوراء :

ـ « هذه (إليانور) .. أو ما تبقى منها .. »

قالت (ماجى) بلهجة ذات معنى :

ـ « فهمت هذا على الفور .. إنها (رونيل) السوداء الآن .. »

ـ « ولكن أين (سمير) ؟ أين ابنى ؟ »

وضعت (ماجى) يدها على يدى وقالت مواسية :

ـ « لن تجده يا (رفعت) .. لقد أخذوه معهم .. على الأقل لم يقتلوه أمامك وأنت مكبل بالأصفاد .. تذكر .. أنت لا تعرف كيف جاء للعالم .. إنه ابنها .. فيه منها أكثر مما فيه منك ، وقد أنجبته لغرض واحد .. يجب أن تنساه .. »

ونظر (فريزر) إلى الباب الموارب فى ركن المكان ، وقال وهو يلوك لفافة تبغه :

ـ « أرى أن نرحل الآن قبل أن يجد جديد .. هذا الكهف يشبه بيت الأشباح فى الملاهى .. ويعج بالمفاجآت .. »

★ ★ ★

ـ « داسيوس ريانوس هلكعال جيلبرت !! »

★ ★ ★

كنا جالسين فى تلك الكافتيريا فى مدينة (روشتوك) نرمق بحر البلطيق الذى لم يهدأ ساعة واحدة منذ البارحة .. أمامى و(ماجى) قدحا قهوة ، بينما (فريزر) يشرب (الشنابس) ليبرهن على أنه فظ خشن ..

قالت لى (ماجى) مواصلة القصة التى بدأتها من ساعة :

ـ « .. وعرفت أن الفئران ليست بفئران .. بل هى تلقنها دروسها الأولى فى عالم السحر .. إنها (رونيل) لكنها لا تملك ذاكرة (رونيل) .. هناك أشياء لا تعرفها أو تحتاج لاسترجاعها .. هكذا عكفت على دراسة الأوراق التى كانت فى حوذة الكاتبة وعرفت منها الكثير عن الساحر (جيلبرت) .. عن هذه الجزيرة .. عن التعويذة التى ستحرره ..

« فى هذا الوقت كنت أرى (إليانور) الصغيرة وهى تكبر بطريقة أثارت هلعى .. لاحظت أن الملاءة لم تعد تغطى جسدها .. أحذيتها تضيق بسرعة .. وبدأت أدرك أن الأمر لا يتعلق بالفصام .. بل هو أخطر من هذا .. إن الوقت يضيق ..

« هكذا اتخذت قرارى بالذهاب إلى ألمانيا .. وحدى .. ما كنت لأصطحب الفتاة معى فى رحلة كهذه .. لم يعرف بالقرار قبلها إلا (جراهام) .. (جراهام) الوفى الذى أوصيته بألا يندهش ولا ينفعل ولا يترك القصر مهما حدث ومهما رأى .. كما أوصيته بأن يتجاهل الهاتف تمامًا حتى لا يسأله أحد عن سبب رحيلى .. إن الطفلة مسئوليته بالكامل .. وأخذت معى نسخة من الأوراق .. لكنى أولاً وقبل أن أرحل قمت بعملين كما تعرف : أولاً قمت بعمل تزوير دقيق لتلك التعاويذ القديمة .. بدلت كلمة من هنا وهناك وغيرت فقرات .. كل هذا بدقة متناهية مستعينة بالمجهر أحيانًا .. وكان تقديرى أن هذا احتياط مهم لو صح توقعى ، ولم تكن (رونيل) تحفظ التعاويذ كما يجب .. سوف تفتش عن الأوراق فى مكتبى وسوف تجدها .. »

قلت لها وأنا أرشف القهوة :

ـ « هذا أقسى مقلب شربته فى حياتها .. »

أردفت (ماجى) دون أن تبتسم :

ـ « العمل الثانى هو أنى شرحت تزويرى للأوراق فى تلك الرسالة التى تركتها لك خلف إطار الصورة على مكتبى .. كان تقديرى أنك أذكى من أن تعتبر الصورة مجرد لمسة رومانسية بلهاء .. »

قلت مرددًا كلمات رسالتها والتى لم أنسها قط :

ـ « الأعز (رفعت) .. لو حدث وجئت هنا فاحرص على ألا تمس الأوراق على المكتب .. لقد قمت بتزوير الوثائق القوطية القديمة .. وأريد أن تجدها (رونيل) كن حذرًا .. (ماجى) .. »

ـ « وبعد هذا طلبت عون (إيوان فريزر) .. »

ابتسم الرجل فى ثقة وبصق على الأرض ليبين كم هو محترف .. فأردفت :

ـ « لم أكن لأستطيع الوصول إلى هذه الجزيرة وحدى .. ما كنت لأقدر على عمل أى شىء من دونه وهو الرجل شديد المراس الذى يعرف كيف يحقق ما يريد .. وكانت فكرتى هى أن نتمكن من تدمير الساحر قبل أن تحاول (رونيل) تحريره .. وطبعًا كنا على الجزيرة فى تلك الليلة حين رأينا حشدًا من ثلاثة أنت منهم ، ينزلون على الشاطئ .. قررنا أن ننتظر ونرى .. عرفنا أن هناك عددًا من الرجال لا يعلم إلا الله كيف جاءوا .. ما كنا لنقدر على مواجهة هؤلاء جميعًا .. »

قال (فريزر) كاشفًا عن أسنانه الملوثة بالطباق :

ـ « اللعبة الطريفة هنا هى أن (ماجى) قد بدلت التعويذة بما يناسب الغرض الجديد .. إن ما قالته (رونيل) ـ دون أن تدرى ما تقول ـ كان استدعاء لقوة (كاتيوم) .. لقبضته

التى بدأت تتراخى .. إنها تنذره من محاولة (جيلبرت) الهرب .. وهكذا تحرر (جيلبرت) جزئيًا فقط ليعود إلى سجنه من جديد .. »

ثم فتش فى علبة التبغ التى يحملها فوجدها فارغة :

ـ « اللعنة ! إن علب التبغ هنا من أردأ الأنواع .. لن تجد أسوأ من هذا فى أقذر جحر فى (غينيا) .. لكنى مضطر .. »

ونهض مبتعدًا ..

قلت لـ (ماجى) وأنا أراقبه وهو يمشى مشيته المعتادة ، فى تحد وعدوانية كأنه خرتيت يطلب القتال :

ـ « ألم تجدى خيرًا من هذا الحيوان ليساعدك ؟ »

قالت فى خبث :

ـ « نعم .. لم أجد .. هناك رجال يصلحون للحوار الهادئ حول كتاب ، ورجال يصلحون لاقتحام الكهوف التى يمارس فيها السحرة طقوسهم .. إن (إيوان) كريم النفس إذ قبل أن يساعدنى فى عمل كهذا بداعى الصداقة .. بداعى قصة مشتركة لم يعد لها وجود الآن .. ثم إنك لا تملك ترف الغيرة .. لقد تزوجت وأنجبت خلال شهرين من غيابى .. »

قلت وأنا أتأمل القدح فارغًا :

ـ « وصرت أرمل وفقدت ابنى .. كل هذا فى شهرين .. »

ربتت على يدى وقالت :

ـ « وأنا فقدت الطفلة التى كنت أهيم بها حبًّا .. هى لم تتزوجك لجمال منظرك .. كانت تريد أحمق يعطيها طفلاً .. والهدف هو أن يسيل دم الأب والابن على المذبح .. وابنك لم يكن ابنك لكنه ابنها لو كنت تفهم ما أعنيه .. أنت كنت فى غيبوبة غارقًا فى رحيق الحب ، ولست مسئولاً عن أى من قراراتك .. ولو كنت مكانك لحذفت هذا الجزء نهائيًا من سجل ذكرياتى .. أنت لم تتزوج ولم ترزق بطفل .. »

قلت فى شرود :

ـ « ترى أين هو الآن وماذا يفعل ؟ »

ـ « لن تجد إجابة .. ربما رحل مع هؤلاء القوم الفئران وربما هو سجين مع (جيلبرت) .. لن تعرف أبدًا .. فقط تذكر .. هو ليس ابنك لمجرد أنه يحمل نصف عدد كروموزوماتك .. إنه ابنها هى .. بالكامل .. »

ـ « وهل يتحرر (جيلبرت) يومًا ما ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكن هذا لن يحدث فى حياتنا على الأرجح .. »

ـ « وهل تعود (رونيل) ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكنها للمرة الأولى قد خدعت بحق .. ولم تكن لها الضحكة الأخيرة .. أعتقد أنها لن تعود أبدًا .. »

وساد صمت طويل ، وتمنينا معًا ألا نراها مرة أخرى فى أية صورة كانت ...

* * *

الآن أعود إلى مصر ..

تفهمون الآن أننى أكذب عليكم حين قلت إننى لم أتزوج ولم أنجب .. لا أعتبر نفسى قد فعلت .. (رونيل) هى التى فعلت ..

هذه الأيام العابرة القاسية قد انقضت سريعًا ، ولم تترك أثرًا فى حياتى .. ولا أعتقد أنه سيكون لها أثر ..

إلا أن حياتى ذاتها لم تتبدل كثيرًا ..

كان المتحف الأسود ينتظرنى .. وتذكرة زيارته باهظة الثمن قد تعنى الحياة نفسها ..

ولكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة



روايات مصرية للجيب

أسطورة رونيل السوداء

أنتم تعرفون أن الطفلة
(إليانور) لم تكن طفلة إلى هذا
الحد .. وأن الساحرة (لورين) لم تكن ساحرة
إلى هذا الحد .. وأن العبقرية (ماجى) لم تكن
عبقرية إلى هذا الحد .. وأن الأحمق (رفعت)
لم يكن أحمق إلى هذا الحد ..
هذا جميل ..
يمكننا البدء إذن ما دمتم تذكرون
كل شيء .... !

د. أحمد خالد توفيق

الثمن فى مصر ٢٥٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم
أسطورة المُتحف الأسود